الباب الثانى

افكار الجماعات ومعتقداتها

الفصل الأوّل

العوامل البعيدة فى معتقدات الجماعات وافكارها

العوامل التحضيرية لمعتقدات الجماعات ـ في ان ظهور معتقدات الجماعة نتيجة اختبار سابق ـ البحث عن العوامل المختلفة فى تلك المعتقدات

(١) الشعب وما له من التأثير الاول ـ فى انه مستودع ماترك الآباء

(٢) التقاليد وكونها خلاصة روح الشعب ـ اهمية

التقاليد من الجهة الاجتماعية ـ في انها تصير مضرة بعد ان كانت لازمة ـ في ان الجماعات اشد احتفاظاً للافكار التقليدية

(٣) الزمن وكونه يهيء استقرار المعتقدات ثم زوالها ـ في انه هو الذى يولد النظام من الفوضى

(٤) النظامات السياسية والاجتماعية ـ فى الخطأ فى تقدير تأثيرها ـ فى ان تأثيرها ضعيف جداً ـ فى انها آثار لا مؤثرات ـ فى انه لا يتيسر للامم ان تختار منها ما تظنه الاحسن ـ فى ان النظامات عناوين يندرج تحت الواحد منها أمور متخالفة بالمرة ـ كيف توجد النظامات ـ فى انه لابد لبعض الامم من بعض نظامات رديئة نظريا كجمع السلطة وتوحيدها

(٥) التعليم والتربية ـ خطاء الناس فى افكارهم الحالية من حيث تأثير التعليم فى الجماعات ـ بعض ايضاحات من الاحصاآت ـ التربية اللاتينية تضعف الاخلاق ـ فى التأثير الذى يمكن أن يكون للتعليم ـ امثلة عن امم مختلفة

ـ

فرغنا من البحث فى تركيب القوة المدركة عند الجماعات وعرفنا كيف تشعر وكيف تفكر وتتعقل ونريد الآن أن نبحث فى كيفية تولد آرائها واعتقاداتها وكيفية حلول هذه الآراء والمعتقدات واستقرارها فى نفوسها

العوامل التى تولد الآراء والاعتقادات فى الجماعات قسمان بعيدة وقريبة

فاما العوامل البعيدة فهى التى تهيء الجماعات لقبول بعض المعتقدات دون بعض اعنى انها تعد التربيـة التى تنبت فيها افكار جديدة ذات قوة وأثر مدهشين وظهور تلك الافكار يكون فجأة فقد تشبه فى انبثاقها والعمل بها انقضاض الصاعقة الاّ ان الواقع انها نتيجة عمل سابق طويل ينبغى البحث عنه

واما العوامل القريبة فهى التى تأتى بعد هذا العمل الطويل ولا أثر لها بدونه ووظيفتها تكوين الاعتقاد الداعى الى الفعل اعنى انها تقوم الفكر وتقذف به الى الخارج مع جميع مايحتمل من النتائج فهى التى تدفع الجماعات فجأة الى القيام بما تمكن من نفسها من الاعمال وهى علة القلاقل والاعتصابات والتفاف الجم الغفير حول رجل يرتفع بذلك الى الأوج او ضد حكومة تهبط الى الدرك الاسفل

تتعاقب هـذه العوامل بقسميها فى جميع حوادث التاريخ العظيمة ففى الثورة الفرنساوية وهى اكبر مثال لتلك الحوادث

كانت العوامل البعيدة هى كتب الفلاسفة وعسف الشرفاء وتقدم العلم وهى التى هيأت روح الجماعات ثم جاءت العوامل القريبة مثل خطب الخطباء ومعارضة الملك فى اجراء اصلاحات لا تعد شيئاً كبيراً وهى التى أثارت الجماعات بالسهولة

ومن العوامل البعيدة ماهو عام بمعنى انه يؤثر فى معتقدات كل جماعة وفى ارائها وهى الشعب والتقاليد والزمن والنظامات والتربية

وسنبحث فى شأن كل واحد من هذه العوامل

١

الشعب

بدأنا به لأن له المقام الأول بين العوامل فله وحده من الاثر ما يربو على آثارها كلها وقد وفينا البحث فيه حقه فى كتابنا (النواميس النفسية لتطور الأمم) حتى لم يعد من المفيد أن ترجع اليه هنا اذ بيناهناك ما هو الشعب من حيث التاريخ وكيف انه متى كملت مميزاته يصير بمقتضى الوراثة نفسها ذا قوة عظمى وتكون له روح ترجع اليها اعتقاداته

ونظاماته وفنونه وجميع عناصر مدينته كذلك بينا ان قوة الشعب تبلغ حداً يتعذر معه انتقال أحد هذه العناصر من أمة الى أخرى بدون أن يتغير تغيراً عاما وخصصنا اربعة فصول منه لشرح هذه القضية لكونها حديثة العهد ولأنه يصعب فهم التاريخ بدونها هناك يرى القارىء انه رغم ظواهر الحال التى قد توجب اللبس يستحيل ان تنتقل اللغة أو الدين أو الفنون أو أى عنصر من عناصر المدنية من أمة الى أخرى الاّ اذا أصابها التغير والتحول. نعم ان البيئة والاحوال والحوادث تشخص مقتضيات الزمن الذى هى فيه وقد يكون لها تأثير كبير لكنه تأثير عرضى على الدوام اذا تضارب مع مقتضيات الشعب اعنى مع سلسلة تلك المؤثرات الوارثية

على انا سنعود الى ذكر شأن الشعب فى كثير من فصول هذا الكتاب ونوضح انه لقوته يسود على غيره من مميزات روح الجماعات وان ذلك هو السبب فى اختلاف جماعات كل بلد مع جماعات البلد الآخر من جهة المعتقدات وخطة العمل اختلافا كبيراً وكذا المؤثرات التى تتأثر بها

٣

التقاليد

التقاليد عبارة عن ماضي الامة فى افكارها وحاجاتها ومشاعرها فهى تشخص روح الشعب ولها فى القوم تأثير عظيم

تقدم علم تركيب الاجسام من يوم ان بين علم التكوين مقدار تأثير الماضى فى تطور الكائنات وسيتقدم علم التاريخ ايضاً حينما ينتشر هذا الاكتشاف لان انتشاره لم يعم بدليل ان كثيراً من اقطاب السياسة لا يزالون على افكار أهل القرن الماضى ممن كانوا يتخيلون انه يتيسر للأمة ان تتخلع عن ماضيها وتنشىء نفسها من جديد غير مستهدية فى ذلك الاّ بنور العقل وحده وفاتهم ان الأمة جسم منظم اوجده الماضى فهى كغيرها من الاجسام لا تستطيع الانتقال من طور الى طور الاّ بتراكم اثار الوراثة فيها على مهل

والذى يقود الناس ولا سيما اذا اجتمعوا انما هى التقاليد وهم لا يسهل عليهم ان يغيروا منها سوى الاسماء والاشكال

وليس هذا مما يوجب الأسف اذ لولا التقاليد ما كان هناك شيء يقال له روح قومية ولا حضارة ممكنة الا ترى ان هم الناس منذ وجدوا ان يكون لهم شنشنة تقاليد فاذا زال نفعها اجتهدوا في هدمها والحاصل انه لا مدنية الاّ بالتقاليد ثم الرقي موقوف على هدمها . والصعوبة في ايجاد التوازن بين التقلب والبقاء الاّ انها صعوبة كبرى فاذا تأصلت في الأمة عادات وتمكنت منها اخلاق عدة اجيال تعذر عليها الانتقال واصبحت كالأمة الصينية غير قادرة على التحسن . ولا تؤثر فيها الثورات العنيفة لانها لا تأتي الاّ باحدى نتيجتين فاما ان الحلقات التي تقطعت من السلسلة تنضم وتلتحم ببعضها فيعود الماضي الى التربع في سيادته بدون تغيير ما . واما ان تبقى تلك الحلقات منثورة فهي الفوضى وخليفتها التقهقر والانحطاط

لذلك كان اكبر النعم التي يجب ان تصبو اليها الامة هي المحافظة على النظامات التي ورثتها وان تسير في الانتقال بها من طور الى اكمل منه على مهل وبلا اهتزاز ذلك مطلب عزيز المنال ولم يفز به الاّ دولة الرومان في الازمان الخالية

وأمة الانكليز فى الازمان الحاضرة

وأشد الناس محافظة على الافكار التقليدية واصعبهم مراساً فى معارضة من يحاول تبديلها هى الجماعات خصوصاً الجماعات التى تتكون منها فئات معينة وقد سبق لى ان افضت الكلام على تمسك الجماعات بالماضى وبينت ان اشد الثوارت عنفاً لا تؤدى الا الى تغيير فى الالفاظ ومن شهد فى آخر القرن الماضى هدم الكنائس وطرد القسوس واعدامهم والاضطهاد العام الذى كان واقعاً على اهل الكثلكة كان يظن ان السلطة الدينية قد بادت ولم يبق لها أثر لكن لم يمض الا بضع سنوات حتى قام الناس ينشدون معابدهم فاضطرت الدولة الى اعادة الدين الذى طمست بالامس معالمه . ومما يوضح ذلك بأجلى بيان ما ذكره (فوركروا) أحد رجال الثورة فى تقريره اذ ذاك ونقله عنه (تاين) قال « ان ما هو مشاهد فى كل مكان من اقامة صلاة يوم الاحد والتردد على الكنائس يدل على ان مجموع الفرنساويين يطلب الرجوع الى عاداته الاولى ولم يعد فى الامكان مقاومة هذا الميل فى الأمة لان السواد الاعظم فى حاجة الى الدين والى العبادة والى القسوس

ومن خطأ بعض فلاسفة العصر الحاضر ـ وهو خطاء وقعت انا فيه ايضاً ـ القول بامكان ايجاد تعليم عام يكفي لازالة الاوهام الدينية ووجه الخطأ ان في الدين سلوانا للقسم الاكبر من المساكين ومن أجل ذلك يجب ان تترك للامة قسوسها ومعابدها وعبادتها »

هكذا اختفت التقاليد برهة ثم استردت سلطانها وهو مثل ليس كمثله مثل يبين سلطان التقاليد على النفوس وليست الاشباح التي لا يستهان بها هي التي تسكن المعابد ولا في القصور يقيم عتاة المستبدين اولئك يبادون في طرفة عين انما الذي لا قبل لنا به هم اولئك الارباب الذين تمكنوا في النفوس فتحكموا في الارواح فلا يزول ملكهم الا بفعل الزمان رويداً رويداً وجيلا بعد جيل

٣

الزمان

أهم العوامل في المسائل التي يبحث عنها علم الاجتماع هو الزمان كما انه كذلك في المسائل التي يبحث عنها علم

الاجسام المنظمة . فهو الموجد الحقيقى الوحيد وهو الهادم القوى الوحيد . هو الذى كون الجبال من حبيبات الرمال ورفع الخلية الحقيرة التى اشتملت على أصل الوجود النوعى الى مقام الانسان وكل ظاهرة وكل حادثة لا تتغير ولا تتحول الاّ بالزمان ولقد أصاب من قال ان النملة اذا امتد أمامها الزمن وسعها أن تجعل الجبل الرفيع مهاداً ولو ان موجودا تمكن من تصريف الزمان كما يشاء لكان صاحب القوة التى يعترف بها المؤمنون للواحد الديان

بحثنا هذا قاصر على تأثير الزمان فى اراء الجماعات ومعتقداتها وهو فيها له كذلك الأثر العظيم فهو القاهر فوق أكبر المؤثرات الاخرى من التى لا تكون بدونه كالشعب وغيره وهو الذى يولد المعتقدات فينميها ثم يميتها ومنه تستمد قوتها وبفعله يتولاها الضعف والانحلال

والزمان هو بالاخص محضر اراء الجماعات ومعتقداتها أو هو مهيء التربية التى تنبت فيها ولذلك صح وجود بعض الافكار فى زمن وامتنع وجودها فى زمن آخر وهو الذى يركز المعتقدات بعضها فوق بعض وكذا الافكار فيهيء

بذلك قيام الآراء والمذاهب فى العصور المتتابعة لانها لاتنبت صدفة ولا توجد اتفاقا بل ان لكل واحد منها جذورا تمتد فى زمن بعيد فاذا انبثقت فانما الزمان هو الذى هيأ تفتح أزهارها واذا اردت ان تعرف كنهها فارجع الى ماضيها . هى بنات الماضى وهى أمهات المستقبل وهى اماء الزمان على الدوام

نتج من هذا ان الزمان هو صاحب السيادة الحقيقة فينا وما علينا الآ ان نتركه يعمل لنرى كل شئ يتحول ويتبدل . نحن الآن فى فزع شديد من مقاصد الجماعات التى تهددنا ومما تنبئنا به من تقويض اركان الهيئة الحاضرة ومن الانقلاب المنتظر فيها . ولكن الزمان سيتكفل وحده باعادة التوازن بيننا . قال موسيو (لافيس) : ما من نظام يقوم فى يوم واحد بل لا بد فى تقرير النظامات السياسية والاجتماعية من مرور الاعصر والاجيال فقد بقى نظام حكم الشرفاء مضطربا غير واضح عدة قرون حتى تبين وتأصلت له قواعد يعرفها الناس كذلك قطعت الملوكية المطلقة قرونا قبل ان تهتدى الى الاصول المنظمة التى تدير بها حكومة البلاد وكم

من اضطراب وقع فى ادوار هذا الانتقال »

٤

النظامات السياسية والاجتماعية

لا يزال الناس يذهبون الى ان النظامات تقوم معوج الهيئة الاجتماعية وان تقدم الامم أثر من آثار اتقان تلك النظامات واصلاح الحكومات وانه يمكن احداث الانقلابات الاجتماعية بواسطة الاوامر والقوانين . كان هذا مذهب الثورة الفرنساوية فى بدايتها واليه يذهب الان ايضاً من اتخذوا مجرد الخوض فى الاجتماعات مذهبا

ذاك وهم تأصل فى الافكار لما تبدده التجارب على تكرارها وقد ضاعت فيه متاعب الفلاسفة والمؤرخين الذين تصدوا لبيان فساده لكنهم لم يلاقوا صعوبة فى اقامة الدليل على ان النظامات نبات الافكار والمشاعر والاخلاق وان الافكار والمشاعر والاخلاق لا تتغير بتغيير القوانين وان الامم لا تختار نظاماتها كما تشتهى كما انها لا تملك اختيار لون اعينها وشعر رؤوسها بل ان النظامات والحكومات ثمرة الشعب الذى

هى فيه فليست هى التى تخلق زمنها ولكنها هى التى اوجدها زمانها . وليست الامم محكومة كما يشاء لها الهوى أنى تشاء بل كما تشاء اخلاقها وطباعها وكما ان كل نظام لم يستقر الاّ بعد قرون عدة كذلك ينبغى لتغييره قرون عدة . وليس للنظامات قيمة نوعية فى ذاتها فلا هى حسنة لذاتها ولا هى رديئة لذاتها وان ما صلح منها لامة فى زمان يجوز ان يكون مضراً فى امة اخرى

لهذا كان من الحقق ان الامة لا تملك كل الملك تغيير نظاماتها نعم فى امكانها ان تبدل اسماءها بواسطة الثورات العنيفة والاضطرابات الدموية لكن اللب يبقى كما كان أما الاسماء فهى عناوين لا يلتفت اليها المؤرخ الذى ينقب عن حقائق الاشياء الا ترى ان اعظم أمة ديمقراطية فى الارض هى الامة الانكليزية مع كونها تعيش تحت امرة حكومة ملكية وان اكبر امة حفها الاستبداد هى الجمهوريات الاسبانية الامريكية رغم نظامها الجمهورى الذى يحكمها ذلك ما يعترف به للانكليز اعظم الجمهوريين تقدماً فى الولايات المتحدة وانى اذكر للقراء ما جاء في جريدة (فروم) الامريكية

ونقلته عنها مجلة المجلات الصادرة فى ديسمبر سنة ١٨٩٤ قالت « لا ينبغى ان ينسى الناس حتى الذين هم من اكبر اعداء الشرفاء ان انكلتره هى اول امم الارض فى الديمقراطية اعنى الامة التى بلغ فيها احترام حقوق الفرد غايته والتى بلغ افرادها من الحرية اعلى مقام » وبالجملة قائد الامم اخلاقها وطباعها لا حكوماتها . تلك قضية حاولت بيانها فى كتابى السابق واثبتها باوضح دليل واقوى مثال

لذلك كان من العبث جداً اضاعة الزمن فى خلق نظام جديد من جديد بل لا فائدة من شدرحال علم المعانى والبيان لخلق مثل هذا النظام فان ذلك من عمل الجهلاء . والحاجة والزمان هما الكفيلان باعداده اذا عقل الناس وتركوا هذين العاملين يعملان . هذا الذى اعتمد عليه الانكليز السكسونيون وهذا هو الذى يقوله لنا مؤرخهم العظيم (ماكولى) ضمن كلام يجب على ادعياء السياسة فى الامم اللاتينية ان يحفظوه على قلوبهم . بداء المؤرخ ببيان ما احدثته القوانين الانكليزية من الآثار الطيبة على ما يظهر بها من الرداءة والتناقض والبعد عن المعقول ثم قارن بين نظام انكلترا والبضعة عشر نظاما

التى اختنقت بين تقلصات الامم اللاتينية فى اوروبا وامريكا واوضح ان الأول لم ينله التغيير الاّ على مهل جزءاً بعد جزء بتأثير الضرورة لا بتأثير النظر العلمى أبدا ثم قال « القواعد التى سار عليها المائتان وخمسون برلمانا من عهد حنا الى عهد فيكتوريا فى مداولاتها وقراراتها هى انها ما اهتمت مطلقاً بحسن التنسيق بل كان كل همها فى الفائدة ولم ترفع شاذاً لشذوذه ولم تأت بجديد الاّ اذا تحققت ان حرجاً استولى على النفوس من اجله ولم تجدد الاّ بمقدار ماتتفادى من هذا الجرح ولم تقرر مبدأ أعم من الضرورة التى اقتضته »

ولو أردنا بيان كون القوانين فى كل أمة منتزعة من روحها وانه لا يمكن لذلك تغييرها عنوة وقسراً للزم ان نأتى على كل قانون ونخوض فى كل نظام . فمثلا يجوز الجدل فلسفياً فى هل حصر السلطة وارجاعها فى النهاية الى يد واحدة أفضل من تفريقها ام العكس أولى . لكن اذا رأينا امة مؤلفة من عناصر مختلفة قضت الف عام فوصلت بعد ذلك الى حصر السلطة وجمعها ورأينا من جهة اخرى ان ثورة عظيمة جاءت لتحطم كل نظام ولده الزمان قد احترمت هذا الحصر وبالغت

فيه كان لنا ان نقول ان هذا النظام هو ابن الضرورة التى لا مفر منها وانه شرط من شروط حياة تلك الامة وان نرثى لحال اولئك الذين قصرت احلامهم من السياسيين الذين يذهبون الى وجوب ابطال ذلك النظام ولو ان الصدفة ساعدتهم على نيل ما يبتغون لكانت نتيجة ذلك قيام حرب أهلية يستطير شررها والعودة عاجلا الى حصر السلطة بأشد مما هى عليه والذى يقارن بين المنافسات الدينية والسياسية الشديدة القائمة فى اجزاء البلاد الفرنساوية والناشئة على الاخص من اختلاف عناصر الامة وبين ميل البعض الى تجزئة السلطة وتوزيعها ايام الثورة وعقب الحرب الفرنساوية الالمانية يتبين له ان العناصر المختلفة التى لا تزال حية فى بلادنا لا تزال بعيدة عن الامتزاج والاتحاد وان أحسن عمل جاءت به الثورة هو حصر السلطة وجمعها وتقسيم البلاد تقسيما اعتباريا لا طبيعيا الى اقسام متعددة توصلا الى مزج الاقاليم القديمة وخلط سكانها بعضهم ببعض فاذا امكن اليوم تحقيق ما يصبو اليه اولئك الذين لا يقرأون عواقب الاعمال من التجزئة والتوزيع أدى ذلك الى اضطرابات تهرق فيها الدماء وتقتل

النفوس ولا يغفل عن ذلك الا من نسى تاريخنا

نتج مما تقدم ان التأثير الحقيقي فى روح الجماعات لا يكون من طريق النظامات واذا افتنا الذهن الى الولايات المتحدة رأيناها ترفل فى حلل الرخاء وتخطر فى جلباب السعادة بفضل نظاماتها الديمقراطية ثم اذا رجعنا الى الجمهوريات الاسبانية الامريكية — الفيناها وهى متمتعة بنظام مثله تتعثر فى اذيال التقهقر والفوضى وحكمنا بأنه لا دخل لتلك النظامات لا فى سعادة الاولى ولا فى شقاء الثانية وبأن الذى يحكم الامم انما هو اخلاقها وكل نظام لا يندمج مع هذه الاخلاق ويمتزج بها تمام الامتزاج يكون أشبه بالثوب المستعار وهو ستار لا يدوم . نعم قامت حروب دموية وهبت ثورات عنيفة وستقوم حروب وتهب ثورات والغرض منها كان ويكون الزام الامم بنظامات يعتقد الناس انها مجلبة السعادة كاعتقادهم فى آثار الاولياء والصالحين وقد يقال ان النظامات تؤثر فى نفوس الجماعات لانها تفضى الى مثل تلك الحروب والثورات — والصحيح ان لا تأثير لها البتة . لانا قد عرفنا انها لا قيمة لها فى ذاتها سواء كانت الغلبة لها ام عليها وانما الذى يؤثر فى الجماعات

اوهام والفاظ وعلى الاخص الالفاظ تلك الالفاظ الخيالية القوية التى سنبين سلطانها

٥

التربية والتعليم

لكل عصر افكار تسود فيه وان كانت فى الغالب من قبيل الخيالات وقد بينا فى غير هذا المكان ما لتلك الافكار من القوة وما هى عليه من القلة

ومن الافكار السائدة فى هذا العصر ان فى التعليم قدرة على تغيير الرجال تغييراً محسوساً وان نتيجته التى لا يشكون فيها هى اصلاحهم بل ايجاد المساواة بينهم. ذكروا ذلك وكرروه فصار أحد المذاهب الثابتة عند الديمقراطيين واصبح التعرض له من اصعب الامور كما كان من الصعب التعرض لسلطان الكنيسة فى الزمن السابق

ولكن اراء الديمقراطيين فى هذا الموضوع كما هى فى كثير من الموضوعات الأخر مناقضة كل المناقضة لما اثبته علم النفس ولما دلت عليه التجارب فمما اثبته الكثيرون من

كبار الفلاسفة بلا عناء خصوصا (هربرت سبنسر) كون التعليم لا يزيد فى تهذيب الانسان ولا فى سعادته ولا يغير من غرائزه وشهواته التى تلقاها بالوراثة وانه اذا ساء طريقه كان ضرره اكبر من نفعه وأيدعلماء الاحصاء هذه النظريات فقالوا ان الميل الى الجرائم يزداد بانتشار التعليم او هو يزداد بانتشاره على طريقة مخصوصة وان الداعداء الهيئة الاجتماعية وهم الفوضويون ينسلون غالبا الى مذهبهم ممن حازوا السبق فى المدارس واشار موسيو (ادولف جيو) وهو احد اعاظم القضاة انه يوجد الآن فى كل اربعة الآف مجرم ثلاثة الاف متعلمون والف واحد أميون وان عدد الجرائم زاد مدى خمسين سنة من (٢٢٧) جريمة لكل مائة الف نسمة الى (٥٥٢) اعنى بنسبة (١٣٣) فى المائة ولاحظ ايضاً هو ورفقاؤه ان الجرائم تكثر بين الشبان الذين ابدلوا تعلم المهن على يد المعلمين بتعليمها فى المدارس الاجبارية المجانية

نعم مما لا يشك فيه انسان ان التعليم اذا حسنت طرائقه ينتج نتائج عملية ذات فائدة كبيرة فاذا هو لم يرفع درجة التهذيب ويؤثر فى رقى الاخلاق فانه ينمى الكفاآت الفنية

ولكن من سوء الحظ ان الامم اللاتينية اسست التعليم على قواعد غير صحيحة ولا سيما منذ خمس وعشرين سنة ومع كون فطاحل العلماء مثل (بريال)و(فوستيل دى كولانج) و (تاين) وكثير غيرهم قد انتقدوها لاتزال تلك الامم على خطئها فيها وقد شرحت انا ايضاً فى كتاب لى اصبح قديما ان طريقة التعليم الحالى عندنا تحول القسم الاكبر ممن يتلقونه الى اعداء للهيئة الاجتماعية وتزيد كثيراً فى اصحاب اشد المذاهب الاشتراكية ضرراً

واول خطر ينجم عن هذه التربية المسماة بحق تربية لاتينية آت من بنائها على قاعدة يحكم علم النفس بفسادها . ذلك انهم قالوا أن الحفظ عن ظهر القلب يربى الذكاء ويقوى الفطنة ثم انتقلوا من هذا الى وجوب الاكثار من الحفظ ما استطاعوا وصار المتعلم فى المدرسة الابتدائية والعالية حتى الذى يتلقى علوم الاستاذية لايعمل الا للحفظ وهو فى ذلك كله لا يدرب مداركه ولا يمرن ملكة الاقدام على العمل من نفسه لان التعليم فى نظره ينحصر فى القاء المحفوظ وفى الخضوع قال موسيو (جول سيمون) وهو أحد وزراء المعارف الأقدمين « ان

حفظ الدروس عن ظهر قلب وكذا حفظ متن فى النحو أو مختصر وحسن الالقاء وحسن التقليد تربية هى من الهزء بمكان اذ كل همة بيديها المتعلم فى هذه السبيل عبارة عن الاعتقاد بان المعلم مصون عن الخطأ وذلك لا ينتج الا نقصنا وضعفنا »

ولو ان ضرر هذه التربيـة كان قاصرا على عدم فائدتها لاكتفينا بالعطف على اولئك الاطفال المساكين الذين يحفظون فى المدرسـة نسب (كلوتير) ومصارعات (نوستيرى) وفصيلات الحيوان وغير ذلك بدلا من ان يتعلموا اشياء كثيرة اخر نافعة لكن ضررها اكبر من ذلك فهى تولد فى نفس المتعلم سآمة شديدة من حالته التى هو عليها بمقتضى نشأته ورغبة شديدة فى الانسلاخ عنها فلا الصانع يبغى البقاء على صنعته ولا الفلاح يميل الى الدوام فى فلاحته وأقل الناس فى الطبقة الوسطى لا يختار لابنائه عملا الا فى وظائف الحكومة والمدرسـة لا تربى رجالا قادرين على الحياة وانما تخرج عمالا لوظائف ينجح فيها الانسان دون ان يهتم بقيادة نفسه ولا ان يتقدم الى عمل من ذاته . فهى توجد فى أسفل

سلم الهيئة الاجتماعية جيوشاً من الصعاليك المتعضين المتهيئين دائماً للثورة . وفى اعلاه طبقتنا الوسطى الفارغة الحذرة المغفلة التى تعتقد اعتقاداً دينيا فى قدرة الحكومة وبعد امكانها وهى مع ذلك لاتنفك عن القدح فيها والتى تخطئ ثم تؤاخذ الحكومة بما أخطأت والتى لا تقدر على القيام بعمل لايد للحكومة فيه

أما الحكومة التى تصنع حملة الشهادات من تلك المختصرات فلايسعها ان تستصنع منهم الاالقليل وتترك الباقين بالضرورة بلا عمل . فوقعت بذلك بين ضرورة تغذية أولئك والصبر على عداء هولاء احتشد ذلك الجمع العظيم من حملة الشهادات يحاصر جميع الوظائف من القمة الى القاعدة اى من الكاتب الصغير الى المعلم فالمدير وصرنا نرى التاجر لايجد الا مع المشقة نائباً يتولى أعماله فى المستعمرات . ونشاهد الالوف من الشهادات مكتظة امام باب كل وظيفة مهما صغرت . ويوجد الآن فى مدينة السين وحدها من المعلمين والمعلمات عشرون الفاً لا عمل لهم ترفعوا عن المعامل والمصانع وشخصوا الى الحكومة يطلبون القوت منها ولما كان عدد الذين يختار منهم قليلا فعدد

الغضاب كثير بالضرورة وهؤلاء مستعدون لكل نوع من أنواع الثورة والهرج تحت قيادة أى رئيس كان وكيفما كان الغرض . ذلك لان اكتساب معارف لايجد صاحبها سبيلا الى استعمالها هو من انجع الوسائل فى تهيئة المرء الى الخروج على امته (١)

ومن الواضح ان الوقت قد فات لمقاومة هذا التيار وانما

---

(١) على ان هذه الظاهرة ليست خاصة بالامم اللاتينية بل تشاهد فى بلاد الصين لكونها محكومة أيضاً بنظام قوى من « المندران » والمندرانية تنال هناك كما هو الحال عندنا بطريق الامتحان وهو عندهم عبارة عن تلاوة الطالب كتباً ضخمة عن ظهر قلبه والصينيون الآن يرون فى جيش المتعلمين الذين لا عمل لهم طامة كبرى على الأمة كذلك الحال فى الهند فمن يوم ان فتح الانكليز فيها المدارس لمجرد تعليم الوطنيين لا لتربيتهم كما يفعلون في انكلترا ظهرت فيها طائفة مخصوصة من المتعلمين يقال لهم (بابوس) اذا لم يجدوا وظيفة انقلبوا اعداء ألداء أشداء ضد الحكومة الانكليزية وكانت نتيجة التعليم سرعة انحطاط اخلاق جميع البابوس الذين دخلوا الخدمة منهم والذين لم يدخلوها وقد افضت الكلام عن ذلك فى كتاب (تمدن الهند) ولاحظه أيضاً جميع المؤلفين الذين زاروا تلك البلاد الواسعة

التجارب وهى آخر مرب للأمم ستظهر لنا خطأنا فهى التى تبرهن على ضرورة الاقلاع عن استعمال تلك الكتب الرديئة وابطال هذه الامتحانات التعسة واتباع طريقة تعليم فنى عملى يرد النشء الى المصانع والمعامل والمشروعات الاستعمارية وغير ذلك من الاعمال التى يجتهد أولئك النشء فى الهرب منها

هذا التعليم الفنى الذى تطلبه الآن العقول النيرة هو الذى تلقاه آباؤنا وهو الذى حافظت عليه الامم التى تحكم الدنيا بقوة ارادتها وبما اوتيت من الاقدام الذاتى فى الاعمال والقدرة على التصرف بالمشروعات

كتب احد كبار المفكرين موسيو (تاين) صفحات فى هذا الموضوع ما اجلها وسأنقل للقراء طرفا منها فيما يلى فابان باوضح برهان ان تربيتنا فى الماضى كانت تماثل التربية عند الانكليز او الامريكان فى الوقت الحاضر او ما يقرب من ذلك ثم اتى بمقارنة جميلة بين الطريقة اللاتينية والطريقة الانكليزية واعرب بافصح لسان عن نتائج الاثنتين

ولو كان الاكتساب السطحى لتلك المعارف الكثيرة واجادة تلاوة تلك الكتب التى لا عد لها مما يرقى ملكات

العقل فينا لاجهدنا النفس لاحتمال مضار هـذه التربية التى تعودناها ولو لم تخرج الا عطلة ممتعضين فهل لها هذا الاثر؛ لا والاسف يملأ قلبنا ان الادراك والتجارب والاقدام والخلق هى عدة الحياة ولانجاح الا بها وليس شئ من ذلك فى الكتب . الكتب معاجم يستفيد المرء من مراجعتها لكن مما لا فائدة فيه نقل الفصول المطولة منها الى الدماغ

اما كون التعليم الفنى يربى العقل بما لا ينال من التربية العلمية الجارية فذلك ماشرحه موسيو (تاين) شرحا وافيا اذ قال « لا تتولد الافكار الا فى مولدها الطبيعى الاعتيادى والذى ينبت بذورها هو المؤثرات الكثيرة المختلفة التى يتأثر بها الشاب كل يوم فى المصنع والمعدن والمحكمة ومكتب المحامى ودائرة الاشغال والمستشفى ومن مشاهدة الآلات والعدد والادوات ومن العمليات ومن اجتماع المبتاعين والفعلة ومن العمل نفسه ومما يصنع رديئا كان الصنع او حسناً غالى الثمن او رخيصاً . هذه هى الملتقطات الصغيرة التى تتناولها العين والاذن او الايدى او الشم ايضاً التقاطا غير مقصود حيث تجتمع وتختمر وتأخذ لها حيزا تنتظم فيه من نفس الشباب فترشده عاجلا او آجلا

الى تركيب جديد او تبسيط مركب او طريقة اقتصاد او تحسين اختراع والشاب الفرنساوى محروم من هذا الامتزاج النفسى فقد غابت عنه كل هذه العناصر السهلة التناول الضرورية فى الوقت الذى هو احوج للاستفادة منها لانه مقصور مدى سبع سنين او ثمان فى المدرسة بعيد عن التجارب الشخصية السهلة القريبة المنال التى تحصل فى الذهن صورة قوية صحيحة من الاشياء والناس وتكسب معرفة الطرق المختلفة لاستعمال ذلك كله فضاع على تسعة من العشرة وقتهم وتعبهم مدى سنوات عدة من عمرهم سنوات ما كان انفعها واكبر اهميتها بل قد كانت تكون الحد الفاصل بين بؤس ماض ومستقبل سعيد اليك اولا نصف الذين يتقدمون الى الامتحان او الثلثين انهم لا ينجحون واخرج من بين الناجحين نصفهم او ثلثيهم وهم الذين ابلاهم الدرس فلا يعودون ينفعون. كلفوهم بما لا يطيقون اذ طلبوا منهم يوم يجلسون على مقعد او امام لوحة ان يكونوا مدى ساعتين اشبه بمعجم يلقى على السامعين جملة من العلوم التى يبحث فيها عن جميع ما علم الانسان والواقع انهم كانوا ذلك او ما يقرب منه مدة ساعتين ولكنهم

لا يبقون كذلك بعد مضى شهر من الزمان فلا يقدروا ان يجوزوا الامتحان مرة اخرى لان معارفهم كانت كثيرة كثيفة فتسربت من عقولهم ثم هم لا يكسبون منها جديدا لان الملكات القت سلاحها ونضب ماء الاثمار منها اذذاك يبرز الشاب وعليه مخايل الرجل التمام وهو فى الغالب الرجل الذى قد فرغ منه. هذا الرجل يجمع اليه نفسه ثم يتزوج ويوطن النفس على ان يدور فى دائرة معينة وان يستقر على الدوران فى الدائرة عينها وينزوى الى العمل الضيق الذى اقام فيه وصار يؤديه بانتظام . ولا شئ بعد ذلك. هذه هى الثمرة فى المتوسط ولاشك في ان الوارد لا يساوى المتصرف اما فى انكلترا وفى امريكا كما كان فى فرنسا قبل سنة ١٧٨٩ فانهم يستعملون عكس ذلك وعندهم تساوى الثمرة ما صرف او تربو عليه »

وبعد ذلك شرح لنا هذا المؤرخ المجيد الفرق بين طريقتنا وطريقة الانكليز السكسونيين فابان ان ليس لهؤلاء من المدارس الخصوصية الكثيرة مالنا . وان التعليم عندهم لا يتلقى من الكتاب بل من الشئ نفسه فالمهندس مثلا يتكون

فى المصنع لا فى المدرسة وهو ما يسمح لكل واحد ان يصل فى حرفته الى الحد الذى تصل اليه قدرته العقلية فيكون عاملا او رئيس عمال اذا قعد به الذكاء عند هذا القدر . وهو مهندس اذا قاده استعداده الى هذا الدرج . تلك هى الطريقة الديموقراطية المثلى وفيها الفائدة الصحيحة للأمة لا التى تجعل مستقبل المرء كله معلقا على نتيجة امتحان يؤديه الطالب وهو فى التاسعة عشرة أو المتممة للعشرين مدة سويعات معدودة قال موسيو (تاين)

« يدخل التلميذ والعود اخضر فى المستشفى او المعدن او المصنع او مكتب المتشرع فيتعلم ويقضى زمن التمرين كما يفعل كاتب المحامى أو المبتدىء فى الحرفة عندنا ويكون قد تلقى اولا بعض دروس عامة مختصرة اوجدت فيه محيطاً تعشش فيه الملاحظات التى تعرض له من يوم دخوله ومع ذلك يجد كل يوم بجانبه دروساً فنية يختلف اليها فى اوقات الفراغ ويتمكن بما يستفيده منها من ترتيب تجاربه وتنسيقها كلما اكتسب شيئاً منها . هذا نظام تنمو فيه القدرة العملية وتتقدم من نفسها بحسب ما تسمح به ملكات التلميذ وتسير فى

طريق العمل المستقبل الذى اختار التمرن عليه منذ الآن وبهذه الواسطة يتمكن الشاب بسرعة من ان ينتزع من نفسه كل ما ملكت ويصير منذ الخامسة والعشرين واحيانًا قبل ذلك ان ساعدته كفاءته ومادته منفذا نافعا بل مبدئا مقداماً مندفعا من ذاته فهو عجلة فى الآلة وهو ايضا المحرك لها

اما فى فرنسا حيث سارت الطريقة الأخرى وصارت تقرب من طريقة اهل الصين فى كل جيل فان مجموع القوى الضائعة عظيم »

ثم استنتج ذلك الحكيم الكبير مما تقدم النتيجة الآتية التى تدل على مخالفة تربيتنا اللاتينية لمقتضيات الحياة مخالفة تعظم كل يوم فقال « امتد زمن التحضير النظرى فى ادوار التعليم الثلاثة الطفولية والصبا والشباب وقد زادت المواد على حد الطاقة والتلميذ جالس على المقعد وعيناه فى الكتاب انتظاراً ليوم الامتحان يوم ينال الشهادة يوم تتقرر الرتبة يوم تعطى الاجازة او الامتياز لا انتظاراً لشىء أخر وقد اعدوا لذلك اردأ الوسائل فاخضعوا التلميذ لنظام تأباه الطبيعة وتنفر منه دواعى الاجتماع فأجلوا التمرين العملى وقصروا التلامذة

فى حجور المدارس وربوهم تربية جسمانية صناعية وشحنوا الذهن شحناً مادياً بالمواد واجهدوا الفكرة وكلفوهم فوق المستطاع غير ملتفتين الى المستقبل ولا مهتمين بسن الرجولة ولا بالوظائف التى لا بد للطالب من القيام بها اذا اكتمل ولا ناظرين الى الوجود الحقيقى الذى اضحى على وشك الهبوط اليه ولا بالجمع المتلاطم الذى يجب تطبيعه بطبائعة أو اخضاعه لاحكامه قبل الانطلاق فيه ولا بالمعترك الانسانى الذى يلزم المرء فيه ان يأخذ اهبته ويتقلد عدته ويتدرب ويتقوى ليتمكن من الكفاح ويبقى قائما على قدميه. مدارسنا لا تكسب الشاب هذا المتاع على ضرورته وكونه أهم ما يجب ان يقتنى. لا تكسبه ملكة حسن التمييز ولا مكنة الأرادة ولا صلابة الاعصاب بل على الضد من ذلك بدلا من ان تجهزه وتهيئه فانها تضعفه وتبعد وجه الشبه بينه هو ومستقبله القريب المحتوم لذلك تراه غالباً يسقط فى اول خطوة يخطوها بين الناس ويكون فى بداية امره كلما مدّ يده للعمل تولاه الكمد وأخذه الخزى زماناً طويلا وقد يصير كالاعرج ويبقى كذلك دائما. تجربة قاسية ذات خطر

تضطرب فيها الاخلاق ويختل ميزان العقل ويخشى من البقاء هكذا على الدوام فقد انكشف الستار وولى الخيال وعظم اليأس واشتدّ الاسى [1]

---

(١) راجع تاين « النظام الحالى جزء ٢ صفحة ١٨٩٤) وهذه الصفحات هى آخر ما كتب تاين تقريبا وفيها خلاصة تجارب ذلك الحكيم العظيم ولكنى مع الاسف ارى اساتذة مدارسنا الذين لم يقيموا زمنا خارج فرنسا لا يدركون انها على ان التربية هى الوسيلة الوحيدة التى نستطيع بها التأثير فى نفس الامة ومن سوء الحظ انه لا يكاد احد عندنا يدرك ان طريقة التعليم التى نجرى عليها هى من اشد عوامل الانحطاط العاجل وانها لا ترفع قيمة نشئنا بل تحط منه وتفسده

ومما يفيد القراء ان يجمعوا بين ما كتب (تاين) والمشاهدات المتعلقة بالتربية في امريكا التى ذكرها موسيو (پول بورجيه) فى كتاب (بحر اخر) فقد لاحظ هو ايضا ان تربيتنا لا تخرج الا اواسط محدودة كفاءتهم فلا اقدام على العمل من انفسهم ولا ارادة فيهم أو فوضويين قال « وهما نموذجان تعسان للرجل المتمدن اذا خاب بانحطاط اخلاقه وعجزه أو فقد الرشد فصار آلة هدم وتخريب » ثم جاء بمقارنة جديرة بالامعان بين مدارسنا الفرنساوية التى هى مصانع اتلاف والمدارس التى تربى الرجل للحياة تربية تفوق الوصف هناك يتبين الفرق بين الامم الديمقراطية الصحيحة والتى ليس لها من ذلك الا ماجاء على السنة خطبائها لا الذى رسخ فى عقولهم

كأني بالقراء يظنون اناقد بعدنا عن موضوعنا روح الاجتماع لكن نحن مازلنافيه لأنه يجب علينالمعرفة الافكار والمعتقدات التى تتولد الآن فى الجماعات ان نعرف كيف هيئت الأرض التى تنبت فيها فالتعليم الذي يعطى الأمة هو المرآة التى يرى فيها مصيرها يوماً من الأيام والذى يبذل منه الآن لشبانها يدل على مستقبل مظلم جداً . كذلك نفوس الجماعات انما تتحسن او تفسد من بعض الجهات بواسطة التربية والتعليم لهذا وجب ان نعرف كيف هيأت الطريقة المتبعة عندنا فى التعليم روح جماعاتنا وكيف انها بعد ان كانت لاهية بنفسها او لا تشتغل بغيرها تحولت الى جيش كثيف من المتعضين مستعد لتنفيذ ما يشير به المهوسون اهل التخيلات او المتفيهقون تجار الكلام فالآن نحن نعلم ان الاشتراكيين والفوضويين يربون فى المدارس وان فيها تحضر اوقات انحطاط الامم اللاتينية عما قريب

الفصل الثانى

العوامل القريبة فى افكار الجماعات

—

(١) الصور والالفاظ والجمل — فيما للالفاظ والجمل من القوة السحرية — فى ان قوة الالفاظ مرتبطة بالصور التى تحدثها فى الخيال وغير متعلقة بمعناها الحقيقى — فى ان تلك الصور تختلف باختلاف الازمان والامم — كثرة الالفاظ — امثلة على كثرة اختلاف معانى بعض الالفاظ المستعملة — القائدة السياسية من اطلاق اسماء جديدة لمسميات قديمة متى صارت اسماؤها الاولى تحدث تأثيراً سيئاً فى نفوس الجماعات — اختلاف معانى الالفاظ الواحدة باختلاف الامم — اختلاف معنى ديموقراطية فى اوروبا وفى امريكا

(٢) — فى الاوهام — فى اهمية الاوهام — فى ان الاوهام موجودة فى أساس كل مدنية — ضرورة الاوهام فى الاجتماع — فى ان الجماعات تفضل الوهم على الحقيقة

(٣) — التجارب — يجوز ان تولد التجارب وحدها فى نفوس الجماعات حقائق لازمة وتهدم اوهاما ضارة — انما تؤثر التجارب اذا كثرت — ماتقتضيه التجارب اللازمة لاقناع الجماعات

(٤) — العقل — عدم تأثيره فى الجماعات — فى انه لايمكن التأثير في الجماعات الا من طريق مشاعرها الغريزية — شأن المنطق في التاريخ — في الاسباب الخفية للحوادث الخارجة عن المعقول

—

فرغنا من البحث فى العوامل البعيدة التحضيرية التى تهيئ نفوس الجماعات لظهور بعض الاميال والافكار وبقى علينا ان نبحث فى العوامل التى تؤثر فيها مباشرة وسنرى فى الفصل الآتى كيف تستعمل هذه العوامل لتظهر آثارها كلها

وقد بحثنا فى القسم الاول من هذا الكتاب فى مشاعر الجماعات وافكارها ومداركها ومما عرفناه يسهل علينا غالبًا استنباط الوسائل التى تؤثر فيها فنحن نعرف مما تقدم أى العوامل يفعل فى تصوراتها ونعرف قوة المؤثرات وعدواها خصوصاً ما جاءها منها فى شكل صور ترتسم فى الخيال ولما كانت مناشئ المؤثرات مختلفة كانت العوامل التى لها قوة

التأثير فى نفوس الجماعات تتنوع كثيراً تبعاً لها لهـذا ينبغى الـكلام فى كل واحد منها وليس البحث غير مفيد لان احوال الجماعات تشبه بعض الشبه طلاسم الارصاد عند القـدماء فاما ان نتمكن من حل طلاسمها واما ان نستسلم لها فتأكلنا .

١

الصور والالفاظ والجمل

تبين عند البحث فى تصور الجماعات أنها تتأثر على الاخص بالصور وليست الصور ممكنة فى كل وقت لـكن من السهل استحضارها فى الذهن بالحذق فى استعمال الالفاظ والجمـل ومتى كان المستعمل لها بارعا فلها قوة السحر عند معتقديه فى الزمن السابق فهى التى تثير فى نفوس الجماعات اشد صواعق الغضب وهى التى تسكنها اذا جاشت ولو جمعت عظام من ذهبوا ضحية الالفاظ والجمل لامكن ان يقام منها هرم ارفع من هرم خيوبس القديم

السر فى تأثير الالفاظ للصور التى تحضر فى الذهن بواسطتها وليس لذلك التأثير ارتباط بمعانيها الحقيقية بل الغالب ان اشدها تأثيراً ما كان معناه غير واضح تماماً مثال ذلك كلمات ديموقراطية . اشتراكية . مساواة حرية . وهكذا مما ابهم معناه ويحتاج فى تحديده الى مؤلفات ضخمة والكل يسلم ان لها سلطاناً ينساب فى النفوس كأنها اشتملت على حل المسائل الاجتماعية كلها وفيها تمثل الاميال اللاشعورية على اختلافها والامل فى تحقيقها

لبعض الالفاظ والجمل سلطان لا يضعفه العقل ولا يؤثر فيه الدليل الفاظ وجمل ينطقها المتكلم خاشعاً امام الجماعات فلا تكاد تخرج من فيه حتى تعلو الهيبة وجوه السامعين وتعنو الوجوه لها احتراماً وكثير يعتقدون ان فيها قوة ألهية. الفاظ وجمل تثير فى النفوس صورا لا كيف لها ولا انحصار محفوفة بالاكبار والاعظام ابهامها يزيد فى قوتها الخفية فهى آلهة لا تدركها الابصار قد احتجبت خلف (المظلة) التى ترتعد لهيبتها فرائص العابد اذا تقدم نحوها

ولما كانت الصور التى تستحضرها الالفاظ مستقلة عن

معانيها كانت مختلفة باختلاف الأجيال والامم وان اتحدت صيغها ولبعض الالفاظ صور تتلوها على الاثر كأن الكلمة منبه اذا تحرك برزت صورته

ومن الالفاظ ما هو مجرد عن قوة استحضار صورة ما ومنها ما تكون له تلك القوة اولا ثم تبلى بالاستعمال فتفقدها تماما وتصير اصواتا فارغة تنحصر فائدتها فى اعفاء المتكلم بها من التفكر والامعان ومن السهل على الانسان اذا حفظ فى صغره قليلا من الالفاظ وشيئاً من الجمل المصطلح عليها ان يجتاز الحياة بها من دون احتياج الى اجهاد نفسه بالفكر فى امر من امور الدنيا

من تأمل فى لغة من اللغات وجد ان الالفاظ التى تتركب منها لا تتغير مع الزمان الاّ ببطء عظيم انما الذى يتغير على الدوام هو الصور التى تلازم تلك الالفاظ والمعانى التى تؤديها ومن هنا قلت فى بعض مؤلفاتى ان ترجمة لغة بتمامها ضرب من المستحيل خصوصا اذا كانت لغة أمة ميتة ونحن اذا ترجمنا الى الفرنساوية كلمة يونانية او لاتينية او سنسيكريتية اواردنا فهم كتاب بلغتنا منذ قرنين او ثلاثة فذلك عبارة عن احلال

الصور والمعانى المنتزعة من حياتنا الحاضرة محل صور ومعارف مغايرة لها بالمرة وكانت معروفة لامم لانسبة بين حياتها وحياتنا . نقل رجال الثورة الفرنساوية عن الرومان وعن اليونان الفاظا وظنوا انهم بذلك يقلدونهم فى نظاماتهم وهم انما اثبتوا لالفاظ قديمة معانى ما كانت لها ابدا فأى شبه بين نظامات الاغريق ونظاماتنا وان تقابلت الاسماء السنا نعلم ان كلمة جمهورية كانت تدل عندهم على نظام سداه الشرفاء ولحمته الشرفاء اجتمع فيه افراد من صغار المستبدين وتحكموا فى قطيع من العبيد المسخرين . تلك جمعيات اشراف قروية كان الرق قوامها ولولا الاسترقاق ما عاشت لحظة واحدة

وتلك كلمة الحرية أى شبه بين معناها الآن عندنا ومعناها قديما عند قوم لم يمر بخاطر واحد منهم طائف الحرية فى الافكار أيام كان اكبر الجرائم النادرة الوقوع تطرق البحث الى الآلهة أو القوانين أو العادات فى مدينة من المدن فكان معنى وطن عند اهل اتينا او اهل اسبرطة تمجيد المدينة لا البلاد اليونانية لانها كانت مدائن متباغضة وفى حرب مستديم ولم يكن لهذا اللفظ معنى عند أهل الغلوا الاقدمين وهم قبائل

متنافرة وأجناس متغايرة وأهل لغات متنوعة وديانات شتى وقهرهم قيصر بدون عناء اذ كان له من بينهم حلفاء على الدوام وروما هي التي اوجدت وطن الغلوى بايجادها الوحدة السياسية والدينية فيها مالنا ولذلك الزمن البعيد فمن قرنين اثنين لم يكن للفظ الوطن فى نفوس الامراء الفرنساويين ما نفهم نحن منه الآن اذ كانوا يحاربون الاجنبي على ملكهم كما فعل البرنس كونديه ولا فى نفوس المهاجرين الذين كانوا يعتقدون ان الشرف وحفظ العهد يقضيان عليهم بمحاربة فرنسا وكانوا يعملون بهذا الاعتقاد لأن نظام حكم الشرفاء كان يربط التابع بالمتبوع لا بالبلاد التي هو منها فحيثما كان المتبوع يوجد الوطن

وما اكثر الالفاظ التي تغير معناها تغيراً كلياً من جيل الى جيل ولم نعد ندرك معانيها الاولى الاَّ مع الجهد والمشقة ولقد أصاب القائل بوجوب الاطلاع على كتب كثيرة للوقوف على ما كان يفهمه آباء اجدادنا من بعض الالفاظ مثل ملك وعائلة ملكية فمابالك بغيرها مما له معنى دقيق

نتج من هذا ان معاني الالفاظ غير ثابتة وانها عرضية اى وقتية تتغير بتغير الاجيال وتختلف باختلاف الامم فاذا أردنا

ان نؤثر فى الجماعات لزمنا ان نعرف معنى الالفاظ عندها وقت مخاطبتها لا معناها القديم ولا الذى يفهمه منها من يختلف معها فى الفكر والمعقول.

ومن اجل هذا متى تمت الانقلابات السياسية واستقرت معتقدات مكان اخرى وتمكن بذلك تقور الجماعات من الصور التى تحضرها من بعض الالفاظ وجب على رجال السياسة الجديرين بهذا الاسم ان يسارعوا الى تغيير تلك الالفاظ من دون ان يتعرضوا لتغيير المسميات لان هذه مرتبطة بمزاج القوم الموروث ارتباطاً ليس من السهل تغييره.

وقد لاحظ توكفيل منذ بعيد وكان نقاداً ان حيل اعمال القنصلية والامبراطورية (فى فرنسا) كان الباس القسم الاكبر من النظامات القديمة لباساً جديداً من الالفاظ اعنى الاعتياض من ألفاظ اصبحت تؤدى فى الاذهان صوراً مكروهة بألفاظ لا تثير فيها هذا التأثر لحدتها فسموا العوائد الشخصية ضرائب عقارية والعونة ضرائب غير مقررة وهكذا.

فمن اهم وظائف سواس الامم تسمية المسميات التى صارت الجماعات لاتطيق سماع اسمائها المعروفة باسماء مقبولة

او على الاقل لامقبولة ولا مكروهةلان قوة الالفاظ شديدة حتى انه يكفى تسمية أشد الاشياء كراهة للجماعات باسماء مختارة لنرضى بها ومن هنا لاحظ (تاين) ان اليعقوبيين تمكنوا باسم الحرية والمساواة وهما كلمتان محبوبتان فى زمانهما عند الناس (من اقامة استبداد احق به بلادالداهومية وتأليف محكمة شبيهة بمحكمة الاضطهاد واحداث مذابح فى الناس شبيهة بمذابح بلاد المكسيك)

فالحكام كالمحامين يرجع فهم الى اختيار الالفاظ وحسن استعمالها وصعوبة هذا الفن ناشئة من كون معنى اللفظ الواحد يختلف غالباً باختلاف طبقات الامة الواحدة اختلافا كبيراً فهى وان استعملت الالفاظ بذاتها لا تتكلم مع ذلك بلغة واحدة

رأينا فى الامثلة التى اتينا عليهاان الزمان هوأهم العوامل فى تغيير معانى الالفاظ وكذلك تختلف المعانى فى الزمن الواحد اختلافا كلياً عند الامم التى اختلفت فى الجنس وان تماثلت فى المدنية ومن المتعذر ادراك ذلك لمن لم يسبق له تطواف طويل فى الامم فلا اطل الكلام فيه ولكنى اشير الى ان

اختلاف المعانى واتحاد الالفاظ عند الامم المختلفة يكون بالاخص فيما يكثر استعماله منها على لسان الجماعات مثل لفظى ديموقراطية واشتراكية اللذين شاع استعمالهما الآن

الافكار والصور التى تتحصل من هذين اللفظين تختلف اختلافاً بينا عند الجنسين اللاتينى والانكليزى السكسونى فمعنى الديموقراطية عند الاول انزواء ارادة الفرد واقدامه على العمل من نفسه امام ارادة المجموع وهمته والمجموع تشخصه الحكومة[1] فالحكومة هى المكلفة بأدارة كل شئ وحصر كل شئ واحتكار كل شئ وصنع كل شئ وهى التى تلجأ اليها دائماً الاحزاب بلا استثناء من احرار الى اشتراكيين الى ملكيين وعلى الضد من ذلك يفهم الانكليزى السكسونى وبالاخص الامريكى من كلمة ديموقراطية نمو ارادة الفرد واقدامه الذاتى الى الحد الاقصى وانزواء الحكومة بقدر ما امكن فلا تكلف بعد الشرطة والجيش والعلاقات السياسية بشئ حتى التعليم وعليه فاللفظ الواحد يفيد فى بلد جمود

---

(١) الحكومة هنا عبارة عن مجموع السلطات التى بيدها زمام الامر فى البلاد

ارادة الفرد وسكون اقدامه الذاتى واستعلاء كلمة الحكومة ويفيد فى بلد أخر انزواء هذه وارتفاع صوت الاول [١]

٢

الاوهام

خضعت الجماعات منذ بزغ فجر المدنية لتأثير الاوهام فاقامت لموجديها اكثر التماثيل والهياكل والمعابد وما من مدنية ومامن حضارة تبلج صبحها فوق ظهر الارض الا وكانت تلك الملوك الهائلة فى طليعة جيوشها اريد المعتقدات الدينية قديماً والسياسية والاجتماعية فى هذه الايام . هى التى شيدت هياكل الكلدان ومصر واقامت المساجد والبيع فى القرون الوسطى وهى التى قلبت القارة الاوروبية من الرأس

---

(١) شرحت القول باسهاب في كتابى (ناموس تطور الامم النفسى) على الفرق بين الديموقراطية عند الامم اللاتينية والامم السكسونية وجاءت نتيجة بحث موسيو (بول بورجيه) في كتابه (بحر اخر) مطابقة على التقريب لما ذكرت وان كان بحثه مستقلا بذاته

الى القدم منذ مائة عام وخاتمها مطبوع فى جبين كل ما ابرزه العقل من المستحدثات الفنية او السياسية او الاجتماعية . يهدمها الانسان احيانا ولكنه يعانى فى ذلك هول الانقلاب العنيس ثم هو محكوم عليه دائماً ان يقيمها من جديد فلولا هى ماخرج من بربرته الاولى ولولاهى لراح مسرعا يتخبط فى اودية الخشونة والتوحش نعم هى خيالات باطلة وهى من نبات الاحلام ولكنها هى التى ساقت الامم الى ايجاد مافى الفنون من رفيع وجميل ومافى الحضارة من عظيم وجليل

قال (دانيال لوزيار) لو أبيد مافى دور العاديات ومافى المكتبات العمومية وكسرت فوق بلاط مماشيها جميع التحف والاثار الفخمة التى ابدعتها الفنون والاديان ما بقى فى العالم شىء مما ولدته الاحلام وما كانت الالهة والابطال ولا الشعراء الا لتحدث فى النفوس شيئاً من الرجاء وبعضاً من الخيال اذ لاحياة للناس بغير الامل والرجاء . حمل العلم هذه الامانة الثقيلة خمسين عاما ثم تغلبت عليه قوة الخيال لانه اصبح غير قادر على الوعد بادائها كلها عاجزاً عن الكذب الى النهاية

اشتد ولع فلاسفة القرن الماضى بهدم الاوهام الدينية

والسياسية والاجتماعية التى عاش بها آباؤنا قروناً واجيالا فلما ظهروا عليها كانوا قد سدوا ايضا منابع الرجاء واغلقوا باب احتمال القضاء وبرزت من خلف الخيال الذى خنقوه قوى الطبيعة العمياء الصماء التى لا تشفق على الضعفاء ولا تحنو على التعساء

سارت الفلسفة الى الامام شوطاً بعيداً ولكنها مع تقدمها لم تهيء للجماعات خيالا يلذ لها والجماعات لاغنى لها عن الاوهام لذلك اندفعت وراء غريزتها وذهبت الى تجار البلاغة الذين يبيعونها تجارة حاضرة مثلها كمثل الحشرة تدب حيث يكون الضياء . ان الحقيقة لم تكن ابداً العامل الاكبر فى تطور الامم ولكنه الباطل على الدوام واذا بحثت عن السبب فى قوة مذهب الاشتراكية فى عصرنا هذا وجدته ما اشتمل عليه من الخيال الذى لا يزال حياً فى العقول فهو يعظم ويتجسم مع تزاحم انوار العلم التى تبرهن على فساده ذلك لان قوته آتية من جهل دعاته بحقائق الاشياء جهلا كافياً يجرئهم على وعد الناس بالسعادة فى الحياة والآن اصبح هذا الوهم سائداً فوق اطلال الزمن الماضى وله الملك آجلا فما كانت الجماعات فى ظمأ الى الحقيقة طول حياتها واذا تبدت

امامها وكانت تغضبها اعرضت ونأت وراحت تعبد الاوهام التى ترضى الامرة عليها لمن اضلها والويل منها لمن هداها

٣

التجارب

التجارب هى على التقريب الوسيلة الفعالة لتقرير الحقيقة فى نفوس الجماعات وازالة الاوهام التى عظم ضررها انما ينبغى ان تكون عامة ماامكن وان تتكرر اذ تجارب جيل لاتؤثر غالبا فى الذى يليه ولذلك لا تصلح الحوادث التاريخية للدليل بل تصلح لبيان انه يجب تكرار التجارب من جيل الى جيل ليكون بعض الاثر وليتوصل بها الى زعزعة الوهم المتأصل فى نفوس الجماعة

ومن المحقق ان مؤرخى العصور الآتية سيكثرون من ذكر حوادث هذا القرن والذى تقدمه لاحتوائها على تجارب لا مثيل لها لان الناس لم يباشروا نظائرها فى زمن من الازمان

واكبر هذه التجارب ثورتنا الفرنساوية لانها تدل على اننا احتجنا الى قتل عشرة ملايين من الرجال واضرام نار

الفتن والقلاقل فى اوروبا كلها مدى عشرين عاما لنعرف ان الامة لا تخلق خلقا جديدا بارشاد العقل وحده وقمنا بتجربتين منهكتين فى خمسين عاماً لنثبت من طريق التجربة ان القياصرة تكلف الأمم التى تمجدها كلفة باهظة ومع انهما كانتا مشرقتين بالحجة على ما ارادوا يظهر انهما لم تعتبرا كافيتين للاقناع والاولى اقتضت بضعة ملايين من النفوس وغارة اجنبية على البلاد والثانية أدت الى سلخ اقليم عنها وضرورة ايجاد جيش مستديم مع ذلك وكانت الثالثة على الابواب من عهد قريب وهى واقعة لا محالة يوما من الايام وبالجملة كان لا بد من تلك الحرب الهائلة التى استنزفت ثروتنا لكى تقلع الامة كلها عن الوهم بان جيش الالمان العرمرم لم يكن الا عبارة عن حرس ملى [1] لا خوف منه كما كانوا

---

(١) كان رأى العامة فى هذا الموضوع مبنياً على اجتماع النقيضين فى ذهنها لما فصلناه من قبل فكان حرسنا الملى فى ذلك الزمن مؤلفاً من صغار الباعة أهل الدعة الذين لا يعرفون للنظام معنى ولا يمكن لذلك الاعتداد بهم فكان كل مسمى باسم كهذا يرتسم فى الذهن على الصورة التى عرفها من قبل ولا يتوجس الناس منه خيفة وكان خطاء

يوحون به عندنا منذ ثلاثين عاماً

ولو أردنا ان نبرهن للأمم التى تعمل بمذهب حماية التجارة الوطنية لتقييد التجارة الاجنبية للزمنا القيام بتجارب ضارة بثروتنا مدة عشرين عاماً ومن السهل الاكثار من الامثلة على ماتقدم .

٤

العقل

لولا الحاجة الى بيان ان لا تأثير للعقل فى الجماعات ما

الجماعات متعديا الى قوادها كما يقع ذلك غالباً بالنسبة للافكار العامة فقد رأينا موسيو (تيرس) يقول ما يأتى ضمن خطابه الذى القاه على مجلس النواب في ٣١ ديسمبر سنة ١٨٦٧ ونقله موسيو أوليفيه في كتاب نشره حديثاً وكان ذلك القطب السياسى يتبع دائما افكار الجماعة الا انه لم يسبقهم فى فكر أبداً قال ناقلا « ليس لبروسيا غير جيشها العامل المساوى لجيشنا على التقريب الاحرس ملى يشبه الحرس الذى كان لنا وعليه لا أهمية له » وهى رواية تبلغ صحتها ما بلغه رأى ذلك السياسى في ضعف مستقبل السكك الحديدية .

احتجنا الى ذكره بين العوامل التى تؤثر فيها لانا قدمنا ان البراهين والادلة لا تأخذ من نفوس الجماعات وانها لا تعقل الا بالمشابهات الرديئة ولهذا فان الخطباء الذين عرفوا كيف تتأثر انما يخاطبون شعورها دون العقل لانه لا سلطان لقواعد المنطق عليها [1] فلأجل اقناع الجماعة ينبغى الوقوف اولا على

---

(١) ترجع ملاحظاتى فى فن التأثير فى الجموع وضعف قواعد المنطق فى هذا الموضوع الى زمن حصار (باريس) رأيت ذات يوم اناساً يسوقون أحد قواد الجيش العظام الى سراى اللوفر حيث مقر الحكومة والناس أكداس من حوله يزمجرون ويتميزون غيظاً وهم يتهمونه بانه كان ياخذ رسم احد المعاقل ليبيعه للبروسيانيين فلما وصلوا به خرج أحد أعضاء الحكومة وكان خطيبا ذائع الصيت ليخطب فى الناس وهم ينادون الموت الموت عاجلا وكنت انتظر منه ان يبرهن لهم على فساد التهمة بقوله ان الفريق المتهم هو أحد المهندسين الذين اقاموا الحصون وان رسومها تباع فى المدينة عند جميع باعة الكتب غير انى بهت ـ كنت شابا فى ذلك الحين ـ اذ سمعته على نقيض ما ظننت يقول وهو يتقدم نحو الجموع « سيأخذ منه العدل اخذاً لا رحمة فيه » فاتركوا حكومة الدفاع عن الامة (١) تتم التحقيق الذى بدأتموه

---

(١) هو اسم الحكومة فى ذلك الحين

المشاعر القائمة بها والتظاهر بموافقتها فيها ثم يحاول الخطيب تعديلها باستعمال مقارنات بسيطة عادية تشخص امامها صورا مؤثرة وينبغي ان يكون مقتدرا على الرجوع القهقرى متى وجد المقتضى وان يتفرس في كل لحظة أثر كلامه في نفس سامعه حتى يغير منه كلما مست الحاجة وهذه الضرورة التي تلجيء الخطيب الى سرعة تغيير الكلام بحسب الاثر الحاصل في نفس السامع هي التي تدلنا على ضعف الخطابة بالكلام المحضر من قبل لان الخطيب يتبع في هذه الحالة سلسلة افكاره لا حركة فكر سامعيه فلا يكون لكلامه اقل تأثير عندهم

أما المناطقة فلانهم تعودوا الاقتناع بالادلة المتسلسلة الدامغة لا يمكنهم الخروج عن عادتهم هذه في مخاطبة الجماعات لذلك يدهشهم على الدوام عدم تأثير استدلالهم قال بعض هؤلاء المنطقيين « ان للقياس المنطقي اعني الجمع بين الشيء ونظيره

وسنزجه في السجن حتى حين » قال هذا فرأيت الثورة قد سكنت وتفرق الجمع ولم يمض ربع ساعة الا والفريق في داره ولوانه خاطبهم بما جال بخاطري من الادلة المنطقية التي اعتقدتها دامغة لمزقوه اربا

فى الاستدلال نتيجة لازمة لا تتخلف عنه وهذا اللزوم يقتضى التسليم حتى من المادة لو ان فيها قدرة على ان تمثل النظائر » وهو مسلم غير انه لا فرق بين الجماعة والمادة فى عدم ادراك النظائر بل فى عدم القدرة على سماعها ومن لم يصدق فليجرب اقناع الهمجى أو المتوحش أو الصبى بالحجة العقلية والدليل المنطقى وهو يقتنع بضعف تأثير هذه الطريقة فى اقناعهم

على انه لا داعى للتجربة فى الهمجى لمعرفة عدم تأثير الادلة العقلية متى عارضت الشعور ويكفينا أن نذكر كم من القرون امسكت الاوهام الدينية بالعقول على مابها من مخالفة قواعد المنطق الابتدائية وان اكبر الناس عقلا وأسماهم فكرا انوا تحت حكمها الفى عام وبقى الحال هكذا حتى جاء هذا الزمان وأمكن البحث فى صحتها ولقد كان أصحاب العقول النيرة كثيرين فى القرون الوسطى وزمن النهضة الفكرية ومع ذلك ليس منهم من هدته الحجة وارشده الدليل الى ما كان فى الاوهام التى استولت على قلبه من الهزء والشطط أو شك يوما فى صحة اساءة الشيطان او فى ضرورة احراق الساحرين

رب سائل أمما يوجب الاسف ان العقل ليس هو الذى

يهدى الجموع على الدوام . نحن لا يسعنا ان نقول به بل نرى انه لو كان الهدى للعقل ما اندفعت الانسانية فى سبل المدنية والحضارة بالهمة التى اوجدتها الخيالات والاوهام . فليس لنا غنى عن الاوهام لانها نبات الغرائز

كل شعب يحمل فى كيانه العقلى نواميس مآله فى الوجود والظاهر انه يسير محكوما بتلك النواميس وانه ينقاد لحكمها بفطرة لا مقدور له فيها حتى فى نزعاته التى يرى انها خارجة عن كل معقول كذلك يظهر احيانا ان الامم مدفوعة بقوى خفية مثل التى تجعل بذرة البلوط شجرة كأمها او التى تدور بها (ذوات الاذناب) فى دائرتها

على انه لا يسعنا ان نعرف الا قليلا من تلك القوى وذلك بالبحث عنها فى حركة تطور الامة العمومية لا فى الحوادث الفردية التى يخال انها سبب ذلك التطور اذ لو قصرنا النظر على هذه الحوادث لظهر ان التاريخ يتكون من مصادفات غير معقولة بالمرة . فلقد كان مما لا يصدقه العقل ان نجاراً جاهلا هو (غاليليه) [1] يصير مدة الفى عام كأله جلت قدرته يؤسس

(١) كذا فى الاصل لانه ولد سنة ١٥٦٤ وتوفى سنة ١٦٤٢

باسمه اهم ارکان المدنیات فی الدنیا . وکان مما لا یصدقه العقل ان عصابات من العرب تندلع من صحاریها وتبسط فتوحاتها على القسم الاکبر من الدنیا القدیمة التی عرفها الیونان والرومان وتختط مملکة فاقت ضخامتها مملکة الاسکندر. کذلك کان مما لا یتصوره العقل أن یقوم ضابط صغیر فی أوروبا التی لها قدم راسخة في التاریخ وأهلها طبقات منظمة بعضها فوق بعض ویتمکن من السیادة على جمیع أولئك الملوك وتلك الامم

اذن لندع العقل للحکماء ولا نطلبن منه ان یتداخل کثیرا فی حکم الامم فما بالعقل بل على الرغم منه فی غالب الاحیان تولدت مشاعر مثل الشرف وانکار اللذات والایمان بالدین وحب المجد والوطن وهی الصفات التی کانت ولا تزال اقوى دعائم المدنیات کلها

الفصل الثالث

قواد الجماعات وطرقهم فى الاقناع

—

(١) قواد الجماعات ـ حاجة الجماعات الفطرية الى قائد تطيعه ـ روح القواد ـ القواد هم الذين يمكنهم وحدهم ايجاد الاعتقاد ووضع نظام للجماعات ـ استبداد القواد نتيجة لازمة ـ أنواع القواد ـ شأن الارادة

(٢) وسائل التأثير التى يستعملها القواد ـ التوكيد والتكرار والعدوى ـ تأثير كل واحد من هذه العوامل ـ كيف ترتقى العدوى فى الامة من الطبقة السفلى الى الطبقة العليا ـ فى ان الفكر يكون للعامة فلا يلبث أن يصير عاما

(٣) النفوذ ـ تعريف النفوذ وأنواعه ـ النفوذ المكتسب والنفوذ الشخصى ـ أمثلة متنوعة ـ كيف يزول النفوذ

نحن الآن نعرف تركيب الجماعات الفكرى والعوامل التى تؤثر فى نفوسها بقى علينا ان نذكر كيفية استعمال هذه العوامل ومن الذى يمكنه استعمالها استعمالا مفيدا

١

قواد الجماعات

ما اجتمع عدد من الاحياء سواء كان من الحيوان او من بنى الانسان الاّ جعل له بمقتضى الفطرة رئيساً

والرئيس فى الجماعات البشرية عبارة عن قائد فى الغالب الاّ ان له بذلك شأناً كبيراً تجتمع الافكار وتتحد حول ارادته وهو الركن الاول الذى يقوم به نظام وحدة الجماعات ويهيئها لان تصير طائفة خاصة

والعادة ان القائد يكون قبل ذلك مقوداً . اعنى انه كان مسحوراً بالفكرة التى صار هو الداعى اليها حتى استولت عليه استيلاء لا يرى معه الاّ ما كان منها وان كل ما خالفها وهم وباطل كما جرى للزعيم (روبسبير) اسكرته افكار (روسو) فقام يدعو اليها . واستعمل الاضطهاد وسيلة لنشرها .

ليس القواد غالبا من اهل الرأى والحصافة بل هم من اهل العمل والاقدام وهم قليلو التبصر . على انه ليس فى قدرتهم ان يكونوا بصراء . لان التأمل يؤدى غالبا الى الشك ثم الى السكون. وهم يخرجون عادة من بين ذوى الاعصاب المريضة المتهوسين الذين اضطربت قواهم العقلية الى النصف وامسوا على شفا جرف الجنون . لا ينفع الدليل على فساد ما اعتقدوا كيفما كان معتقدهم باطلا . ولا تثنيهم حجة عن طلب ما قصدوا بالغاً منه الخطل ما بلغ . ولا يؤثر فيهم الاحتقار ولا الاضطهاد بل ذلك يزيدهم تهوساً وعنادا . حتى انهم يفقدون غريزة المحافظة على النفس فلا يبتغون فى الغالب اجرا على عملهم الاّ ان يكونوا من ضحاياه . تزيد شدة اعتقادهم فى قوة تأثير اقوالهم . والجموع تصغى دائما الى قول ذى الارادة القوية الذى يعرف كيف يتسلط عليها ومتى صار الناس جماعة فقدوا ارادتهم والتفوا كلهم حول من كان له شىء منها

وجد القواد فى الامم على الدوام . غير انهم ليسوا جميعاً من اهل الاعتقاد الصادق الذى يصير به المرء رسولا فى قومه .

بل هم فى الغالب قوالون سوفسطائيون لا يسعون الا وراء منافعهم الذاتية فيتملقون ذوى المشاعر السافلة ليكتسبوا رضاهم وقد يكون النفوذ الذى ينالونه بهذه الوسائل كبيراً جدا الا انه سريع الزوال . اما اصحاب المعتقدات الصحيحة الذين تمكنوا من نفوس الجماعات وحركوها مثل (بطرس الراهب) و(لوثر) و (سافونارول) ورجال الثورة الفرنساوية وغيرهم فانهم لم يتمكنوا من خلب العقول واجتذاب الارواح الا بعد ان سكروا بخمر المذهب الذى اعتقدوه . وبذلك توصلوا الى توليد تلك القوة الهائلة فى النفوس وهى التصديق الذى يجعل المرء عبداً لخياله .

كان عمل قواد الجموع على الدوام خلق الاعتقاد فى النفوس لافرق بين ان يكون دينياً او سياسياً او اجتماعيا . ولا ان يكون محله عملا او انسانا او رأياً بهذا كان تأثيرهم عظيما جدا . لان الايمان اكبر قوة فى تصرف الانسان . وقد صدق الانجيل فى قوله انه يزحزح الجبال عن مواضعها . فمن كان مؤمنا زادت قوته عشر امثالها . والذى قام باكبر حوادث التاريخ افراد من الضعفاء المؤمنين الذين لم يكن لهم من الحول الا

الايمان . وليس المستبدون ولا الفلاسفة ولا اهل البأس على الاخص هم الذين اقاموا الاديان الكبر التى سادت على الدنيا . واختطوا الممالك الشاسعة التى امتدت فوق السطحين

غير ان الامثلة التى ذكرناها تختص بقواد عظام يندر ظهورهم فمن السهل على التاريخ حصرهم . وهم رأس سلسلة تتدلى من أولئك القواد العظام الى العامل الذى يقف فى قهوة اطبق الدخان فى سمائها ويسترعى اسماع اخوته وهو يلوك صيغاً حفظها من دون ان يدرك معانيها . ولكنه يؤكد ان فى العمل بها تحقيق جميع الامانى والآمال

لايلبث الانسان ان يقع تحت حكم قائد يتبعه كلما خرج عن العزلة الى الجماعة ذلك امر واقع فى جميع الطبقات ارقاها وادناها . فاما افراد طبقة العامة فان الواحد منهم متى خرج عن حرفته او مهنته لا تجد عنده فكراً واضحا فى أمر من الامور . وكلهم غير كفء لقيادة ذاته . ومرشدهم هو القائد وربما امكن الاستعاضة عنه بتلك الصحف الدورية التى تصنع لقرائها افكاراً وتحصل لهم جملا مصوغة تغنيهم عن التفكير الا ان البدل لا يقوم مقام الاصل تماماً

من لوازم سلطة القواد ان تكون مستبدة على ان استبدادهم هو علة سيادتهم وقد لوحظ كثيراً ان فيهم مقدرة على اطاعة طبقات العمال الذين هم أشد عربدة واصعب مراساً مع تجرد اولئك القواد من كل شيء يستندون عليه في سلطتهم . فهم يجددون ساعات العمل ويقررون الاعتصابات وينفذونها بمبقات ويفضونها بمبقات

قواد هذه الايام صائرون الى الحلول مكان السلطات الحاكمة كلما تركت هي الناس يحثون فيها ويضعفون من نفوذها . وتعسف المولى الجديد وظلمه يجعل الجماعة تطيعه بسهولة اكثر مما اطاعت حكوماتها . واذا حدث حادث اختفى بسببه القائد ولم يول الخلف على الاثر تصبح الجماعة جمهوراً مفككك الاجزاء ولا قدرة فيها . فلما اعتصب عمال شركة الامنيبوس اعتصابهم الاخير في باريس وقبض على الرئيسين اللذين كانا القائدين بطل الاعتصاب لساعته . انما الحاجة التي يشتد شعور الجماعة بها هي الخضوع لا الحرية وقد بلغ منها الظمأ الى الطاعة انها تخضع بفطرتها لكل من ادعى السيادة عليها

تنقسم القواد الى فريقين ممتازين فقواد أولو عزم وارادة قوية لكنها وقتية . وقواد ذوو ارادة جمعت بين القوة والدوام وهؤلاء قليلون والفريق الاول اصحاب حدة ونزق وشجاعة واقدام . وهم على الاخص نافعون فى تنفيذ ما دبر او كسب الجموع بلا خوف من الخطر وفى جعل الجبان بطلا مغواراً ذلك مثل (ناى) و (مورات) زمن الامبراطورية الاولى ومثل (غاريبالدى) فى عصرنا هذا فانه كان رجلا هجوما لاذكاء فيه لكن ذا عزم ومضاء . وبذلك تمكن مع نفر قليل من الاستيلاء على مملكة (نابولى) القديمة على رغم الجيش المنظم الذى كان يحميها

عزيمة أولئك القواد على قوتها قلما تبقى بعد زوال السبب الذى دعا اليها . وكثيراً ما يبرهن الذين تجملوا بها على ضعف مدهش متى عادوا الى حياتهم الاعتيادية كالذين ذكرناهم فتراهم لايستطيعون التصرف فى أصغر الحوادث مع كونهم كانوا ماهرين فى تصريف غيرهم . أولئك قواد لا يمكنهم القيام بوظائفهم الا اذا كانوا نفسهم مقودين وكان لهم مهيج على الدوام واستولت عليهم يد أو فكر من الافكار

وساروا فى طريق مرسوم من قبل

اما الفريق الثانى من القواد وهم ذوو الأرادة الثابتة فان تأثيرهم اعظم بكثير وان كانوا اقل ظهوراً فى الشكل وهم الذين نبغ من بينهم اصحاب الاعمال الكبيرة كالقديس (بولص) ومحمد (صلى الله عليه وسلم) و(كريستوف كولومب) و(دولسبس). وسواء كان قواد هذا الفريق من الاذكياء او الاغبياء لهم الدنيا أبد الآبدين لان الارادة الثابتة التى اتصفوا بها ملكة نادرة الوجود لكنها قوية يخضع لها كل شىء الا ان الناس لا يدركون دائما ما عسى ان يكون من وراء الارادة القوية المستمرة فالذى يكون من ورائها هو أنه لا شىء يقف أمامها حتى الطبيعة حتى الآلهة حتى الرجال

وأقرب الامثال على ما تأتى به الادارة القوية الثابته هو ذلك الرجل العظيم الذى فصل الدينين . وأنجز عملا قصرت عنه همة أكبر الملوك منذ ثلاثة آلاف عام . نعم لم ينجح بعد ذلك فى عمل يضارع هذا العمل . لكن الشيخوخة كانت قد أدركته وكل شىء ينطفىء أمامها حتى الارادة

من أراد بيان ما تأتى به الارادة وحدها فما عليه الا أن يذكر

العقبات التى ذللت لفتح قناة السويس . وقد لخص الدكتور (كزاليس) وهو من شهود الحال فى أسطر تسحر الالباب تاريخ ذلك العمل المجيد نقلا عن صاحبه الذى خلد التاريخ ذكره فقال « كان ـ يعنى دلسبس ـ يقص علينا حيناً فحيناً حوادث القناة مرحلة بعد أخرى . فحكى لنا مالاقى من الصعاب التى ذللها . وكيف جعل المستحيل ممكناً وروى المقاومات التى صادفته . والتحزبات التى اعترضته والياس الذى كان قد استولى على قلبه والخيبة التى كان يؤوب بها وكيف ان ذلك كله لم يكن ليثنى عزيمته . ولا ليضعف من ارادته . وكان يذكر انكلترا وهى تحاربه وتحمل عليه الحملة بعد الحملة . وفرنسا ومصر مترددتان والعميد الفرنساوى أشد الجميع معارضة فى البدء بالعمل . حتى أنه لما رأى عدم الامتثال أتحى على العمال بالعطش فسعى فمنع عنهم الماء الفرات . ولا تنسى ان ناظر البحرية وفريق المهندسين والناس من رجل الجد وذى الخبرة وصاحب العلم كلهم خصماء . وكلهم مقتنعون علما بان الخيبة محتمة يحسبون سيرها ويحددون يوم حلولها كما ينبأ بالكسوف او الخسوف »

ان الكتاب الذى يضم سيرة أولئك القواد العظام لا يكون فيه عدد كثير من الاسماء لكن تلك الاسماء هى التى كانت على هامة أكبر حوادث الحضارة والتاريخ .

٣

وسائل القواد فى التأثير

التوكيد والتكرار والعدوى

اذا مست الحاجة الى قيادة جماعة وحملها على عمل من الاعمال كاحراق قصر أو الاستماتة فى الدفاع عن حصن أو معقل وجب التأثير فيها بخواطر سريعة . والامثولة أشد ذلك تأثيراً فى نفوسها الاّ انه يجب أن تكون هناك أحوال جعلتها مستعدة للتأثر وأن يكون من يريد تحريكها حائزاً للنفوذ وسيأتى الكلام فيه

لكن اذا كان الغرض بث افكار فى عقولها أو معتقدات فى نفوسها كالافكار الاشتراكية العصرية فالوسائل غير ما

تقدم . واخص ما يستعمله القواد منها ثلاث : التوكيد . والتكرار . والعدوى . ولذلك تأثير بطىء الا انه متى انبث فيها المطلوب لزمها زمناً طويلا

فاما التوكيد فانه من أهم العوامل لبث الفكر فى نفوس الجماعات متى كان بسيطاً خالياً من التعقل والدليل . وكلما كان التوكيد موجزاً ومجرداً عن كل ماله مسحة الحجة والتقرير كان عظيم التأثير . هكذا اعتمدت الكتب الدينية وقوانين جميع القرون على مجرد التوكيد فالتوكيد قيمته يعرفها أهل السياسة الذين يريدون الدفاع عن عمل سياسى واهل الصناعات الذين يروجون بضاعتهم بالنشر عنها

الا ان قيمة التوكيد هى بدوام تكراره بالالفاظ عينها ما أمكن ذلك . وأظن ان نابوليون هو القائل بان أهم صيغ البيان التكرار فاذا تكرر الشىء رسخ فى الاذهان رسوخا تنتهى بقبوله حقيقة ناصعة .

للتكرار تأثير فى عقول المستنيرين وتأثيره اكبر فى عقول الجماعات من باب أولى . والسبب فى ذلك كون المكرر ينطبع فى تجاويف الملكات اللاشعورية التى تختمر فيها اسباب

افعال الانسان . فاذا انقضى شطر من الزمن نسى الواحدمنا صاحب التكرار وانتهى بتصديق المكرور . وهذا هوالسرفى تأثير الاعلانات العجيب . يقرأ الواحد مائة مرة ان احسن الحلوى ما كان من صنع زيد فيخيل اليه من التكرار انه سمع ذلك من مصادر شتى وينتهى باعتقاد صحة الخبر . ويقرأ الف مرة ان دقيق فلان شفى اعاظم القوم من مرض عضال فيميل الى التجربة ان اصيب بمثل المرض المذكور . ويقرأ كل يوم فى الصحف ان زيداً من الاذال وعمراً من الفضلاء فينتهى باعتقاد ذلك الا اذا كان يقرأ دائماً فى جريدة أخرى ما يخالفه فانه لا يفل التكرار الا التكرار

ومتى كثر تكرار أمر واجمع المكررون عليه تولد من عملهم تيار فكرى يتلوه ذلك المؤثر العظيم اى العدوى كما وقع ذلك فى بعض المشروعات المالية الشهيرة التى تمكن أصحابها بثروتهم من كسب كل قادر على معونتهم لان للافكار والمشاعر والتأثرات والمعتقدات عدوى فى الجماعات تماثل فى قوتها عدوى المكروبات وذلك امر طبيعى لوجوده فى الحيوانات متى اجتمعت فالفرس يقبع فى مربطه فتفعل فعله

الخيل كلها . وتجزع الشاة او تضطرب فى حركتها فتفعل الغنم مثلها . كذلك لحركات الانسان فى الجماعة عدوى سريعة جداً وهذا هو السبب فى سرعة انزعاج الكل لفزع الواحد بينهم . حتى ان اختلال القوى العقلية معد . وكثير ما هم اطباء المجانين الذين جنوا . وشاهد بعضهم نوعا من الجنون تنتقل عدواه من الانسان الى الحيوان

ولا يجب فى العدوى وجود الافراد الكثيرين فى مكان واحد بل يجوز أن تحصل عن بعد من الحوادث التى تتحد لاجلها وجهة افكار المتأثرين بها فتجعلهم بذلك كالجماعة لاسيما اذا كانت النفوس مهيأة من قبل باحد العوامل البعيدة التى مر ذكرها . ذلك ما كان من ثورة سنة ١٨٤٨ فانها بدأت فى باريس وما عتمت ان امتدت الى قسم كبير من اوروبا وهزت اركان كثير من الممالك

قالوا ان لحب التقليد تأثيراً كبيراً فى الناس وليس التقليد الا اثراً بسيطاً من العدوى . وقد بينت اثر التقليد منذ خمس عشرة سنة فى غير هذا الكتاب فاكتفى بايراد ماقلته اذ ذاك مما شرحه بعد ذلك الكتاب حديثاً

« الرجل شبيه بالحيوان يميل بطبعه الى التقليد . فالتقليد من حاجاته على شرط سهولته . وهذه الحاجة هى التى تجعل للبدىء (الجدة) تأثيراً كبيراً . والقليل من الناس لا يقلد سواء كان ذلك فى الافكار او الاراء أو الادبيات او اللباس لان الذى تقاد به الجماعات هو المثال لا البرهان . ولكل عصر اناس قليل عددهم يستحدثون البدىء فيقلدهم ابناء عصرهم فيها . وانما يشترط ان لا يبتعد المبتدع كثيراً عن المألوف حتى لا يصعب التقليد فيضعف تأثير المبتدع ولذلك لم يكن للذين فاقوا عصرهم من كبار الرجال تأثير فى قومهم الا نادراً لبعد البون بينهما . ومن هنا قل تأثير الاوروبى فى الشرقى مع ما للاول من المزايا المدنية لان الخلف شديد بين الرجلين

يتشابه اهل كل عصر فى كل امة بتأثير الزمن وتبادل التقليد حتى الذين يخيل انهم متفاوتون كالحكماء والعلماء والادباء فانك ترى على افكارهم وما يكتبون صبغة عشيرة واحدة تدلك فى الحال على انهم ابناء عصر واحد . ولا يلزم ان يطول الحديث مع رجل لمعرفة الدرس الذى يصبو اليه . والعمل

الذى اعتاده . والبيئة التى يختلف اليها »[١]

ويبلغ تأثير العدوى الى حد أنه يتعدى توحيد الافكار الى توحيد كيفية التأثر بالحوادث . فالعدوى هى التى تنفر من الشىء فى وقت من الاوقات ثم ترغب فيه ثانية من كان اشد الناس بغضاً له كما وقع فى (تانها وزر)[٢]

والعدوى هى الاصل فى انتشار افكار الجماعات ومعتقداتها لا الحجج والبراهين ففى الحمارة تتولد افكار الفعلة من طريق التوكيد والتكرار والعدوى . وقليلا ما تولدت افكار الجماعات فى كل عصر من غير هذا الطريق . وقد اصاب (رنان[٣]) اذ شبه مؤسسى النصرانية الاولين

---

(١) راجع كتاب الانسان والهيئة الاجتماعية لمؤلفه جوستاف لوبون سنة ١٨٨١ جزء ٢ ص ١١٦

(٢) رواية وضعها وجنر نفر الناس منها أولا ثم أعجبوا بها

(٣) حكيم مشهور بفرنسا فى اواخر القرن الماضى وكان قسيسا فى مبدأ أمره وهو صاحب الكتاب المعروف المسمى (حياة المسيح)

« بالشعلة الاشتراكيين الذين ينشرون مبادئهم من حمارة الى اخرى » وقال (فولتير) [١] قبل ذلك بالنسبة للديانة المسيحية « انها استمرت لايدين بها الا اخس الناس مدة مائة عام »

ويؤخذ من الامثلة المتقدمة ان العدوى فى مثل تلك الاحوال تبتدىء فى الطبقات النازلة ثم تصعد منها الى الطبقات الرفيعة ونحن الآن نشاهد هذه الظاهرة فى مذهب الاشتراكيين لانه بدأ يمتد بين الذين يخال انهم سيكونون اول ضحاياه . لكن قوة العدوى شديدة بحيث يضعف امامها اثر المناقع الذاتية

هذا هو السبب فى ان الفكر اذا انتشر بين طبقات العامة لابد له من الانتشار ايضاً بين بقية طبقات الامة الى ارفعها وان كان فاسدا بعيدا عن الصواب . وهنا رد فعل يشرئب من الطبقات الدنيا الى الطبقات العليا . وذلك من اغرب المشاهدات الاجتماعية لان الافكار العامة لاتأتيهم دائما الا من افكار عالية تخلف عنها اثرها فى البيئة التى ولدت فيها فيتناولها قائدو الجماعة بعد ان تمكن منهم ويشوهونها ثم

---

(١) اشهر كتاب الفرنساويين فى القرن الثامن عشر

يؤلفون فئة تزيد فى تغييرها . ثم يبثونها فى الجماعات وهذه تضاعف التغيير . ثم تصير حقيقة عند العامة وبعد ذلك تصعد الى منبعها فتتمكن من نفوس الطبقة العالية . وعلى هذا يكون العقل هو الذى يحكم الدنيا ولكن من بعد باعد . فقد تفنى عظام الحكماء الذين يوجدون الافكار وتصير تراباً ويمر عليها كذلك الزمن الطويل قبل ان تسود الافكار التى اوجدوها

٣

النفوذ

مما يساعد كثيراً على قوة تأثير الافكار التى بثت فى الجماعات بواسطة التوكيد والتكرار والعدوى كونها تنتهى باكتساب قوة خفية تسمى النفوذ

للنفوذ قوة لاتقف امامها قوة اخرى . وكل سلطة سادت فى الوجود سواء كانت سلطة الافكار او الرجال فهو السبب فى قيامها وسيادتها . والنفوذ كلمة يعرف الجميع معناها ولكنها تستعمل استعمالات كثيرة . ولذلك لم يكن من السهل تعريفها . وقد

يجتمع النفوذ مع بعض المشاعر كالاعجاب او الرهبة . وربما كان الاثنان اصلا له فى احوال كثيرة . الاّ انه قد يوجد بدونهما . مثل نفوذ الذين ماتوا فانه لا محل للخوف منهم . ودليل ذلك ان اكثر من نشعر بنفوذه فيناهم من الذين ارتحلوا عن هذه الدار ولم نعد نخاف منهم مثل الاسكندر وقيصر ومحمد (صلى الله عليه وسلم) وبوذا . كذلك لبعض الكائنات او البدع تأثير فى النفوس وان كان مما لا يعجب به كالآلهة المنغوليين الذين يوجدون فى معابد الهند التى تحت سطح الارض

ويمكن ان يقال ان النفوذ عبارة عن سلطة رجل او عمل او فكر يستولى بها على العقول . وتلك السلطة تعطل ملكة النقد فتملأ النفس اندهاشاً واحتراما . ولا يمكن تفسير الشعور الذى يحدث منه كما هو الشأن فى كل شعور . الا انه لابد ان يكون من جنس الاجتذاب الذى يحدث فى نفس الشخص النائم نوما مغناطيسياً . والنفوذ اعظم مقوم لكل سيادة فى العالم اذ لولا هو ما ساد الآلهة والملوك والنساء

ثم النفوذ انواع يمكن حصرها فى قسمين . النفوذ المكتسب

والنفوذ الشخصى . فالاول هو الذى يرجع لاسم صاحبه او ثروته او شهرته . وقد يكون منفصلا عن النفوذ الشخصى واما النفوذ الشخصى فهو امر ذاتى قد يجتمع مع الشهرة والمجد والثروة ويشتد بانضمامها اليه . وقد يكون وحده

وا كثر النوعين شيوعا هو النفوذ المكتسب اوالعرضى فهو يثبت للرجل بمجرد كونه يشغل مركزاً او يملك ثروة او يتحلى ببعض الالقاب وان لم يكن له قيمة من نفسه فللجندى فى لباسه وللقاضى فى زيه الرسمى نفوذ ما ارتديا لباسهما . ولذلك قال (باسكال) بضرورة الجبة والشعر للقضاة[1]

---

(١) للالقاب والاوسمة والشارات تأثير فى الجماعات فى كل بلد حتى التى بلغ فيها استقلال الفرد وحريته ارفع الدرجات . وانى أنقل هنا جملة غريبة من كتاب حديث نشره أحد السياح بياناً لنفوذ بعض العظماء فى انكلتره قال « لاحظت مرارا ان اجتماع احدالحائزين لقب (بير) مع أكبرهم عقلا وتمييزا يحدث فى نفوس هؤلاء شعوراً يكاد يكون سكراً من نوع خاص . فمتى كان له من اليسار ما يرتكز عليه لقبه فهم يحيونه قبل ان يروه . فاذا التقوا به تلقوا منه كل شىء فرحين . تحمر وجوههم سروراً بقدمه . فاذا خاطبهم كتموا جذلهم فيشتد احمرار الوجنتين . ويظهر فى العينين بريق غير معهود . اللوردية

ولولا الجبة والشعر لفقدوا ثلاثة ارباع نفوذهم ولا يزال الاشتراكي كيفما اشتد جفاؤه يشعر بشيء من الاضطراب اذا رأى أميراً أو عظيماً من الشرفاء ويكفي ان يكون هذا اللقب لرجل ليتمكن من النصب على التاجر فيما يشاء

والنفوذ الذي اشرنا اليه خاص بالانسان . وبجانبه يوجد النفوذ الذي يكون للافكار او الادبيات او الفنيات وغير ذلك وهو في غالب الاحوال ناشيء من التكرار وما التاريخ وبالاخص تاريخ الاداب والفنون الا تكرار رأي سبق ولم يعارضه احد فيؤول الامر الى ان كل واحد يكرر ما قرأ في المدرسة ووجدت بذلك اسماء واشياء لا يجرأ احد على الحديث فيها فما لا شبهة فيه ان مطالعة « هومير » تورث قراء هذا الزمان مللا شديداً الا انه لا يجرأ احد على القول به و« البارتينون » اصبح اليوم خرابة تراكمت فيها الانقاض

في دمهم كالرقص عند الاندلسي . والموسيقى عند الالماني والثورة عند الفرنساوي . شهوتهم في الجيل وشكسبير اقل من شهوتهم في الشرفاء وارتياحهم وتيههم لهؤلاء أكبر . كتاب تلك الرتبة عندهم في رواج وهو كالتوراة موجود عند كل انسان

ولا فائدة منها . الا أن نفوذه لا يزال قوياحتى انهم لا يبصرونه كما هو الآن بل كما كان فى القدم محفوفا بابهته وفخامته فمن خواص النفوذ ان لا يجعل الانسان يرى الشيء على حقيقته وان يعطل فيه ملكة النقد والتمييز

تحتاج الجماعات دائماً والافراد غالباً الى آراء حاضرة فى جميع المباحث وانتشار هذه الاراء غيرمرتبط بما اشتملت عليه من الصواب او الخطأ بل مرجعه مالها من النفوذ

ننتقل الآن الى النفوذ الشخصى وهو يختلف مع النفوذ المكتسب لانه صفة تنفرد عن كل لقب وكل وظيفة يتصف بها أفراد معدودون فيبهرون بها نفوس من حولهم ويجذبونها اليهم كالمغناطيس وان ساووهم فى المنزلة بين أمتهم ولم يكن لهم شيء من وسائل التسلط والغلبة ويبثون فيهم افكارهم وينقلون اليهم مشاعرهم . وأولئك يطيعون امرهم كما يطيع الحيوان المفترس أوامر مروضه . وان كان فى استطاعته افتراسه بالسهولة لو اراد

كان هذا النفوذ الكبير لجميع العظماء من قواد الجماعات مثل بوذا وعيسى ومحمد صلى الله عليه وسلم وجان دارك

ونابليون. وهو السبب فى تمكنهم فانما تسلط الآلهة والابطال والمذاهب تسلطاً لادخول للمناظرة فيه . بل ذلك السلطان يزول اذا بحث فيه

كان اولئك العظماء ذوى قوة اخاذة قبل اشتهارهم وتلك القوة هى السبب فى شهرتهم . فلما بلغ نابليون مثلا ذروة المعالى كان له نفوذ شامل بمقتضى منعته وسلطانه . الاّ انه كان له شيء منه يوم لم يكن له شيء من السلطة ولم يكن معروفا لدى احد فلما ترقى الى رتبة لواء (جنرال) وكان لا يزال مجهولا عهد اليه من كان مستصنعاً له بقيادة الجيش الفرنساوى المحارب فى بلاد ايتاليا فوجد نفسه بين لوآآت عتاة اشداء وكانوا قد اجمعوا امرهم على الاغلاظ له فى المقابلة لاعتبارهم اياه دخيلا بينهم . ولكنه ما عتم ان اخذ بزمامهم من اول التقائه بهم بلا كلام ولا اشارة ولا وعيد بل باول نظرة من ذلك الذى قدر له ان يكون من العظماء . واليك كيف كان اللقاء

« جاء قواد الفرق الى المعسكر العام وقلوبهم نافرة من هذا الرجل حديث النعمة وكان بينهم اللواء (اوجيرو) وهو

جندى عظيم الجثة غليظ الطبع . مختال بطول نجاده فخور بشجاعته وكان ممتعضاً ينساب بالشتائم على نابليون من يوم ان سمع به وعرف اوصافه فسماه صنيعة (باراس) ولواء الشارع ونعته بالدب لانه كان يحب التفكر منعزلا وذا سمنة صغيرة ومشهوراً بالرياضى الصغير وبالخيال فلما اكتملوا ادخلوهم غرفة الاستقبال فابطأ نابليون فى الخروج اليهم وبعد زمن بان لهم متقلداً سيفه ثم اتشح بردائه واخبرهم بنياته وانفذ اليهم اوامره واشار اليهم بالانصراف اما (اوجيرو) فقد تولاه الصمت ولم يرجع الى نفسه الا بعد ان خرج فجعل يسب كما كان يشتم من قبل ولكنه اقر مع زميله (مسينا) ان هذا القائد الصغير اوقع الرعب فى قلبه وانه حائر فى التأثير الذى اخذه به اول ما وقع بصره عليه »

صار نابليون من كبار الرجال فزاد نفوذه بمقدار ما اوتى من المجد واصبح فى اعين الجماعات مساوياً للآلهة عند المتعبدين اتفق ان القائد (فاندام) وكان جنديا ثوريا خشن الطباع جاف الاخلاق اكثر من زميله « اوجيرو » قصد ذات يوم سراى تويلرى حيث نابليون وذلك سنة ١٨١٥ ومعه القائد

(اورنانو) فقال الاول للثانى وهما صاعدان فوق سلم القصر يحدثه عن نابليون « ايها الصديق ان لذلك الرجل الشيطان فى نفسى تأثيراً لست ادرك كنهه حتى انك لتراني مع كوني لا اخاف الله ولا الشيطان اذا اقتربت منه تأخذني الرعشة كالطفل الصغير ويخيل الى انه قادر على ادخالى فى سم الخياط واحراقى بالنار» وقد كان لنابليون مثل ذلك التأثير فى جميع من يقترب منه (١)

---

(١) وكان هو يعلم ذلك من نفسه ويعلم انه يزيد فيه بمعاملته أكبر من حوله من الرجال معاملة لا تليق بعلاف الخيل على أنه كان من بينهم كثيرون من رجال الثورة الذين ازعجوا أوروبا . وروايات عصره مشحونة بالامثلة فى هذا الموضوع . فمنها انه انتهر ذات يوم (بونيو) وسط مجلس شورى الدولة ونعته بخادم قليل التربية . فارتعد المشتوم . فاقترب منه نابليون وقال له « أثاب اليك رشدك ايها الابله الكبير » . وكان بونيو واقفاً على قدميه كالجارد فانحنى ملياً فمد الصغير يده وقبض على اذن الكبير . قال (بونيو) « علامة رضا تسكر من وجهت اليه وصفاء سيد يتلطف » . هذه الحوادث وامثالها تدل على ما يفعله النفوذ في النفوس اذ يجعلها تخنع خنوع الذلة والصغار . وتبين

هذا التأثير الذى فاق حـد الاعجاب يبين لنا السبب فى الاستقبال العظيم الذى قوبل به نابليون يوم عودته من جزيرة « الب » وكيف انه افتتح ثانيـة بلا امهال قلوب الامة الفرنساوية وهو أعزل وليس معه معين وامامه جيوش تلك الامة المنظمة وكان الناس يظنون انها سئمت من جبروته عليها . حلف القواد الذين ارسلوا للقبض عليه ان يفعلوا فلن تـكن الا نظرة منه اخضعتهم وهم صامتون وكتب القائد (ولسلى) فى ذلك يقول « نزل نابليون من السفينة الى بر البلاد الفرنساوية وليس معه الا قليل من رجاله الخصوصيين كانه فار من جزيرة « الب » الصغيرة التى كانت كل مايقدر ان يتسلط عليه فما لبث بضعة اسابيع حتى قلب نظام الادارة الفرنساوية كلها على مرأى من ملـكها الشرعى وذلك من غير ان يريق قطرة دم لواحد من اهلها بل بمحض نفوذه الشخصى مما لم يسبق له مثيل فى الدنيا واعجب منه ما كان له من التأثير فى حلفائه اثناء هذه الحركة الطويلة التى ختمت فيها حياته العمومية

درجة احتقار ذلك الجبار العظيم لمن حوله فهو الذى كان يقول عنهم انهم لا يصلحون الا حشوا للمدافع

فانه كان يلجئهم الى تتبع خطاه حتى كاد يسحقهم لولا المقادير مات نابليون ولكن نفوذه بقي حيا بعده او صار ينمو وتأثيره هذا هو الذي حمل الناس على الاعتراف بابن اخته امبراطوراً وكان من المستضعفين وها نحن اولاء اليوم نشهد ظهور اقاصيصه من جديد وذلك برهان على ان خياله لا يزال قويا في النفوس . اسيء معاملة الرجال كما تشاء واقتلهم الوفا الوفا وانزل على البلاد غارة وغارة انك في حل مما تصنع مادمت ذا نفوذ وكان فيك من الذكاء ما تحمي به ذاك النفوذ

رب قائل ولكنك قد اخترت التمثيل للنفوذ باكبر مثال عزيز المثال والحق اني اخترته عمداً لابين للقراء كيف ثبتت اركان الديانات الكبر . وقامت المذاهب العظام . وانشئت الممالك الواسعة اذ لولا تأثير النفوذ في الجماعات ما كنا لذلك مدركين

لا يقوم النفوذ بالتأثير الشخصي والفخار العسكري والرهبة الدينية دون سواها . بل يجوز ان يتسبب عن امر اصغر منها بكثير ويكون مع ذلك شديداً . ولنا من القرن الحاضر امثلة كثيرة اكبرها مثال سيتوارثه السلف عن

الخلف جيلا بعد جيل . وهو الذى نره فى تاريخ ذلك الرجل العظيم الذى غير وجه البسيطة كما غير طرق المواصلات التجارية بين الامم يوم ان فصل بين القارتين . وقد كان السبب فى نجاحه ما اوتيه من قوة الارادة . ولا تنس تأثيره الذى كان ينفذه الى نفوس مخالطيه . كان الناس كلهم اضداداً له فاذا ما وجد فيهم انقلبوا برأيه معجبين . واذا خاطبهم اسكرتهم عذوبة القول فاصبحوا بعد النفور احبة صادقين ولقد انفرد الانكليز بالشدة فى معارضته فلما ظهر فى بلادهم صاروا له اعواناً مخلصين . ثم مرَّ بمدينة (سوثمبتون) فدقوا النواقيس فرحا بمقدمه وهم يفكرون الآن فى اقامة تمثال يخلد ذكره دهر الداهرين . قامت فى وجهه الحوائل من مادة ورجال وماء وصخور ورمال فقهر الكل وسخره فلما فاز اصبح لا يؤمن بالصعاب ولا يخشى الصدام واراد ان يبدأ عملا جديداً ففكر فى الذهاب من السويس الى باناما . وشرع فى العمل بالوسائل نفسها لكن الشيخوخة كانت قد اقبلت . واليقين لا يزحزح الجبال الا اذا لم تتصل بذروتها السماء . هنالك استعصى الجبل . وحم القضاء . ونزلت الكارثة فهدمت

صرح مجد اقامه ذلك البطل العظيم ان فى حياته لمرشداً كيف يحيا النفوذ و كيف يموت. ابلغ الرجل فى المجد ارفع منزلة رقيها كبار الرجال . وانزله قضاة امته الى اخس دركات المجرمين فلما مات مرت جنازته كانما تشيع نفسها بين الجماهير وهم عنه لاهون وانما ملوك الدول الاجنبية هم الذين ذكروه يوم مماته فاعربوا عن اعجابهم به كما يقع لاعاظم الرجال (١)

---

(١) لما مات دولسبس نشرت جريدة « نوى فراى بريسه » التمساوية بمدينة « فينا » مقالة فى مآل ذلك الرجل جاءت فيها بخواطر جديرة بالامعان ولذلك ننقلها للقراء قالت « لم يبق موجب للعجب من مآل كريستوف كولمبو (١) الذى يثير الحزن والاسى بعد الحكم على « فرديناند دولسبس » لانه اذا كان فرديناند دولسبس نصابا فكل أمل من الآمال الكبار جرم عظيم ولو كان دولسبس من أهل العصور الاولى لتوجه اهل زمانه بابهى تاج من المجد والفخار . ولسقوه الرحيق فى حجرة آلهتهم التى كانوا يعبدون لانه غير وجه الارض . واتى من الاعمال ما يدعو الى تحسين الخلق فى الوجود

خلد رئيس محكمة الاستئناف اسمه في التاريخ بحكمه على دولسبس

---

(١) هو الذى اكتشف امريكا

الامثلة التى قدمناها تعد اقصى ما يبلغ النفوذ اليه . فاذا

لأن الامم لا تنفك تسأل عن اسم الذى اجترأ غير هياب فحط من قدر عصره . والبس طاقية المجرمين رأس شيخ كانت حياته مجداً وفخاراً لمعاصريه

« الا فليكفوا منذ اليوم عن ذكر العدالة بين ربوع تمكنت البغضاء من نفوس صغار الموظفين فى مصالحها فحنقوا على كل من قام بعمل مجيد . الا ان الامم فى حاجة الى رجال ذوى عزم واقدام يثقون بانفسهم ويقتحمون كل صعب وهم لذواتهم غير ملتفتين الا انه لا حذر لنابغ اذ لو كان حذراً ما امكنه ان يرقى هامة العصر الذى هو فيه

« ذاق فرديناند دولسبس حلاوة المجد وغضاضة الجذل . السويس وبناما . وهنا يحق للنفس ان تغضب من اداب الفوز والانتصار فلما افلح دولسبس وجمع بين البحرين جاءته الملوك والامراء تهديه التهانى . واليوم لما ادركه الفشل امام صخور (كوردبليير) كان نصاباً حقيراً . ان هذه الاحزاب تقوم بين الطبقات فى الامم يثيرها حقد الموظفين الذين الفوا المكاتب ولاذوا بقانون العقوبات انتقاما ممن يصبو الى المجد والمعالى . ولقد يحار مشرعو هذى العصور امام تلك الافكار العالية التى يولدها النبغاء . والعامة فى ذلك اقل فهما وادنى ادراكا . لكن من السهل على الافوكاتو العمومى اقامة البرهان على ان ستانلى من القتلة وان دولسبس من الخادعين .

والناس من يلق خيراً قائلون له ما يشتهى ولأم المخطىء الهبل

اردت ان تعرف ماهيـة النفوذ مفصلا وجب ان تضع تلك الامثلة فى اعلى السلم ثم تتدرج من منشئى الديانات ومقيمى الممالك حتى تصل الى الرجل البسيط الذى يحاول ان يبهر جاره بثوب جديد او وسام

وبين هاتين النهايتين درجات كثيرة من النفوذ تراها فى جميع اركان المدنيـة من علوم وفنون واداب . وترى النفوذ اول مؤثر فى تحصيل الاعتقاد . فالناس يقلدون ذا النفوذ عمداً او بمحض الفطرة سواء كان انساناً او رأياً او شيئاً آخر . ويتولد فى اهل عصر من قلدوه طريقة مخصوصة يحسون بها ويترجمون عما به يشعرون . ويكون التقليد فى الغالب فطريا لذلك يبلغ حد الـكمال والاتقان . ومن ذلك ان مصورى هذه الايام اخذوا يعيدون رسم الصور ذات الالوان الباهتة والازياء العابسة التى تمثل اناساً من اهل الفطرة الاولى . وهم لا يشعرون من اين جاءهم هذا الميل ويظنون انهم هم الذين اوجدوه لانفسهم وفاتهم انه صنع احد كبار المصورين ولولا ذلك لاستمروا على النظر الى تلك الصور من جهة سذاجتها وانحطاط درجتها فى فن التصوير . ومنهم من قلدوا احـد

المشاهير فجعلوا يكثرون فى مصوراتهم من الظلال البنفسجية اللون مع انهم لا يرون هذا اللون منتشراً فى الطبيعة اكثر مما كان يراه غيرهم منذ خمسين عاماً . والواقع انهم متأثرون بفعل استاذ من عظماء اساتذة الفن كانت له فى ذلك التلوين شهرة فائقة وان كان هذا الاختراع مما يعد غريبا . وامثال المصورين كثيرة فى جميع عناصر المدنية

ويؤخذ مما تقدم ان النفوذ يتكون بعوامل شتى أهمها النجاح . فمتى نجح الآمر فى امره دانت له الناس وبطلت معارضتهم له وكذلك الفكر اذا تمكن من العقول والدليل على ان النجاح اقوى عامل فى تحصيل النفوذ ان هذا يذهب بذهاب ذاك . فالناس يهللون فى المساء لبطل كلل بالنصر ويسخرون منه فى الصباح اذا قلب له الزمان ظهر المجن . وبقدر النفوذ يكون انعكاس الرأى فى صاحبه اذا تولته الخيبة فتراه الجماعة من انذادها فتميل الى الانتقام منه جزاء ذلها امام سلطانه الذى لم تعد تعترف له بشىء منه . هكذا كان نفوذ روبسبير شديداً يوم كان يقطع رؤوس زملائه ورؤوس الكثير من معاصريه . فلما ضاعت منه بعض الاصوات

وقت الانتخاب وسقط من مركزه فارقه النفوذ لساعته . وشيعته الجماعة الى المشنقة وهي تتميز من الغيظ كما كانت تشيع بالامس ضحاياه . ومن عبد الآلهة وزاغ عنها كاد يقتله الغضب وهو يحطم الاصنام

يذهب الخذلان بالنفوذ فجأة وقد يذهب النفوذ بالبحث فيه . لكن ذلك لا يتم الا بالتدريج . وهذه الوسيلة هي اضمن الوسائل لاضاعته وما من اله او انسان دام له النفوذ زمناً طويلا الا كان لا يحتمل المناظرة فيه . انما تعجب الجماعات ممن يرفع عن مقامها

الفصل الرابع

حدود تقلب معتقدات الجماعات وافكارها

—

(١) فى المعتقدات الثابتة — في عدم تقلب بعض المعتقدات العامة — فى ان هذه المعتقدات هى التى تهتدى بها المدنية — في صعوبة ازالتها — فى ان التعصب احد فضائل الامم من بعض الوجوه — في ان بطلان معتقد عقلا لا يؤثر فى انتشاره ورسوخه

(٢) — فيما للجماعات من الافكار غير الثابتة — فى ان الافكار التى لا ترجع الى المعتقدات العامة كثيرة التغير — فى ان تغيير المعتقدات والافكار يظهر فى أقل من قرن واحد — فى حدود هذا التغير الحقيقية — فيما يكون فيه التغير — فى ان زوال المعتقدات العامة فى العصر الحاضر وشدة انتشار المطبوعات مما يزيد فى كثرة تغير الافكار — فى ان أفكار الجماعات تميل الى عدم الاهتمام بكثير من الاحوال — فى ضعف الحكومات عن قيادة الافكار كما فى الزمن السابق — فى أن تشعب الافكار في الزمن الحاضر يمنع من تسلطها تسلط القاهر المستبد

١

فى المعتقدات الثابتة

يوجد بين الخواص التشريحية اى الجسمانية والخواص النفسية تشابه تام . فمن الاولى ماهو ثابت اولا يتغير الا ببطء شديد بحيث يلزم لتغييره زمن كالذى بيننا وبين الطوفان. ومنها ما هو متقلب يتغير بالسهولة من أثر البيئة أو المربى . وقد يبلغ التغيير درجة تختفى فيها الخواص الاصلية على غير المتأمل

وكذلك الحال فى الخواص الأدبية . فمن اخلاق الشعب ماهو ثابت لا يغيره كرور الايام . ومنها ما هو متقلب يتغير. ومن ينعم النظر فى معتقدات الامم وافكارها يرى دائما فى اخلاقها اصلا ثابتاً ترسب فوقه افكار متقلبة كما ترسب الرمال فوق الصخر

وعليه تنقسم معتقدات الجماعات الى قسمين الأول المعتقدات الدائمة التى تعمر عدة قرون واليها ترجع مدنية

الأمة كلها . كالاقطار التى سادت ايام حكم الشرفاء والمعتقدات المسيحية وافكار الاصلاح (البروتستانتية) . وكالجنسية . والافكار الديموقراطية والاجتماعية فى ايامنا . والقسم الثانى يشمل الافكار الوقتية المتغيرة . وهى مشتقة فى الغالب من الافكار العامة تظهر وتغيب فى الجيل الواحد كالنظريات التى تسترشد بها الفنون والادب في اوقات معلومة ومذهب حرية الكتابة (الانشأ) [١] ومذهب الطبيعيين ومذهب الصوفية . وهكذا . وتلك الافكار كلها سطحية سريعة التغير كالبدىء (المودة) فمثلها كمثل الامواج الصغيرة التى تظهر وتختفى من دون انقطاع على سطح بحيرة عميقة

المعتقدات الكبيرة العامة قليلة جدا . وقيامها وسقوطها فى كل امة ذات تاريخ يمثلان اعظم دور فى حياتها . ولاقوام للمدنية بدونها

---

(١) هو مذهب يقول أصحابه بعدم وجوب التقيد دائما بما جرى عليه السلف فى فن التحرير من التزام قواعد وتراكيب مخصوصة

ومن السهل جداً ايجاد فكر وقتى فى عقول الجماعات لكن من الصعب جداً تقرير معتقد دائم فى نفوسها كما انه من الصعب جداً هدم اعتقاد تمكن منها . ولا سبيل الى التغيير غالبا الاّ بالثورات العنيفة بل ان الثورة لا تؤدى الى ذلك الا اذا اضمحل قبلها أثر المعتقد فى النفوس . فهى تصلح لكسح تلك البقية التى تكاد تكون فى حكم المهمل لولا ان سلطان العادة يمنع من الاقلاع عنها بالمرة . فالثورة التى تقبل عبارة عن معتقد يدبر

ومن السهل تحديد اليوم الذى يندك فيه احد المعتقدات الكبرى ذلك هو يوم يأخذ الناس بالبحث فى قيمة هذا الاعتقاد لان كل اعتقاد عام يكاد يكون امراً فرضياً . فهو لا يحتمل البقاء الا بشرط عدم البحث فيه

غير ان النظامات التى اسست على اعتقاد عام تستمر حافظة لقوتها ولا تتحلل الا ببطء ، وان تزعزع ذلك الاعتقاد فاذا تم له الهدم تساقط ما بنى عليه

ومما قضت به سنة الوجود حتى الآن ان كل امة اصبحت متمكنة من تغيير معتقداتها لابد لها عاجلا من تغيير جميع

اركان حضارتها فهى تغير وتبدل فيها حتى تهتدى الى معتقد جديد عام ترضاه النفوس وتعيش فى فوضى حتى تعثر عليه فالمعتقدات العامة هى دعائم الحضارة التى لا بد منها وهى التى ترسم للافكار طريقها الذى تسير فيه وهى التى توحى بالايمان وتفرض الواجبات

ادركت الامم على الدوام فائدة المعتقدات العامة وفطنت الى ان يوم زوالها هو يوم بدء سقوطها . عبد الرومانيون مدينة روما عبادة المتعصبين فسادوا على الدنيا اجمع . فلما انطفأ هذا الاعتقاد ماتت مدينة روما . واستمر المتبربرون الذين خربوا ملكها على همجيتهم حتى اذا رسخت بينهم بعض المعتقدات العامة وجد فيهم شيء من الامتزاج والتآلف وخرجوا من الفوضى

وعليه تعذر الامم فى دفاعها المستميت عن معتقداتها . اذ الحقيقة ان هذا التعصب هو ارقى الفضائل فى حياة الامم وان كان مذموماً جداً من الجهة الفلسفية

ما احرق اهل القرون الوسطى الالوف من الناس الا للدفاع عن معتقد عام موجود أو لادخال معتقد عام جديد فى النفوس وما مات

الكثير من المخترعين والمبتدعين والاسى مل، قلوبهم الا انهم لم ينالوا قسطاً من العذاب لاجل تلك المعتقدات وما اضطربت الدنيا المرة بعد المرة الا للدفاع عنها . وما ماتت الملايين فى ساحة الوغى الا بسببها . وكذلك يكون فى مستقبل الايام

من الصعب غرس معتقد جديد لكنه بعد ان يتمكن من النفس يدوم شديد التأثير زمنا طويلا وكيفما كان خطأ من الجهة الفلسفية فانه يتسلط على أكبر ذوى الالباب . بدليل ان الامم الاوروباوية دانت لاقاصيص واعتقدتها حقائق لا شك فيها خمسة عشر قرنا . والمتأمل فى تلك الاقاصيص يراها أحق بالقوم الهمج [1] كاقاصيص (مولوخ) [2] هكذا بقى العالم قرونا وهو لا يفقه تلك الخرافة الرائعة القائلة بان

---

(١) أقول الهمج من حيث الفلسفة والنظر اما عملا فقد اوجدت تلك الاقاصيص مدنية جديدة صرفة . وأبصر الناس من ورائها مدى خمسة عشر قرنا هاتيك الجنان دانية القطوف واحيت قلوبهم بالآمال مما لم يعودوا يذوقون حلاوته الآن

(٢) اله عبده الكلدانيون واهل قرطاجه وكانوا يحرقون الاطفال قرباناً له ويعتقدون انه يمد ذراعيه دائما ليتلقاها (م)

الهاً اذاق ابنه عذاب الهون انتقاما ممن عصاه من خلقه .ولم يجل بخاطر اعظم الرجال عقلا وادراكاً مثل (غاليله) و (نيوتن) و (لا بنيتز) انه يجوز النظر فى حقيقة هذه الافكار . ذلك مما يبرهن على قوة استيلاء المعتقدات العامة وسحرها النفوس . ولكنه يبرهن ايضاً على ان العقل محدود بحدود مخجلة

ومتى تمكنت عقيدة جديدة من نفوس الجماعات اصبحت مصدر نظاماتها ومرجع فنونها وقاعدة سيرها . هنالك يستحكم سلطانها وتتم غلبتها . فترى أهل العزائم لا يفكرون الاّ فى تحقيقها . وواضعى القوانين الا فى الاخذ بها . والفلاسفة وأرباب الفنون والكتاب الا فى تمثيلها على صور شتى .

وقد يتولد عن العقيدة العامة افكار وقتية ثانوية الا انها تكون على الدوام مصبوغة بصبغتها فقد تولدت حضارة المصريين وحضارة الاوروبيين فى القرون الوسطى وحضارة المسلمين من عقائد دينية قليلة العدد طبعت كل عقيدة منها خاتمها على كل جزئية من جزئيات حضارتها وسهلت بذلك معرفتها

من هـذا يتبين ان الفضل للعقائد العامة فى احاطة أهل كل عصر بتقاليد وافـكار وعادات تقيدوا بها وصاروا متشابهين والذى يهـدى الناس فى سيرهم انما هى الافـكار والعادات المتولدة عن تلك العقائد فهى الحاكمة على اعمالنا جليلها وصغيرها وكيفما سمت مداركنا فانا لا نفكر فى الخلاص منها . اذ الاستبداد الحقيقى هو الذى يدخل على النفوس من طريق الغرائز . لانه هو الذى لا يتمكن المرء من محاربته . فلقد كان (تيبير) و (جنكيزخان) و (نابوليون) جبارين مستبدين ولـكن استئثار « موسى » و « بوذا » و « عيسى » و « محمد » صلى الله عليه وسلم و « لوتر » وهم فى القبور أشد وأبقى . ان مكيدة قد تبيد سطوة الجبار ولـكن ماذا ينفع الـكيد فى عقيدة استقرت فى النفوس . قامت حرب عنيفة بين الثورة الفرنساوية والدين المسيحى وكانت الجماعات فى ظواهر الامر من جانب الاولى واستعمل الثوار من وسائل القهر والاضطهاد ما استعمله الاندلسيون والثورة هى التى دارت عليها الدائرة انما الجبابرة الذين سادوا فى البشر هم خيال الاموات أو الاوهام التى اوجدتها الامم لنفسها

ما كان بطلان العقائد العامة من حيث النظر والفلسفة مانعاً من استظهارها وقد يظهر أن فوزها مشروط باحتوائها على شيء من الهزء الخفي واذا كانت مذاهب الاشتراكيين في العصر الحاضر واضحة الضعف فليس ضعفها هذا هو الذي يكون سبباً في عدم استيلائها على نفوس الجماعات . وانما السبب في انحطاطها عن جميع العقائد الدينية راجع الى ان السعادة التي وعدت بها الديانات لا تتحقق الا في الدار الباقية فلم يكن لاحد ان يماري في تحقيقها واما السعادة التي وعد بها مذهب الاشتراكيين فانها يجب ان تتحقق في الحياة الدنيا ومتى شرع في ذلك بان ان الوعد خلب وسقط بذلك نفوذ العقيدة الجديدة وعليه فلا يعظم سلطان هذه العقيدة ان تم لها الظفر الا الى اليوم الذي يبدأ فيه بتحقيقها وذلك هو السبب في ان هذا الدين الجديد له من قوة التخريب ما كان لغيره من الاديان التي سبقته ولكنه لن يكون له ما كان لها من قوة النبأ

٣

فيما للجماعات من الافكار غير الثابته

—

يوجد فوق سطح العقائد الثابتة التى شرحنا تأثيرها العظيم طبقة من الافكار والاراء التى تتجدد وتزول دائماً . فمنها ما يدوم يوماً واحداً . وأهمها لا يدوم اكثر من الجيل الذى نشأ فيه . وقد قدمنا ان التغيير الذى يطرأ على هذه الافكار صورى اكثر مما هو حقيقى فى الغالب . وانها مصبوغة على الدوام بصبغة الشعب الذى توجد فيه . ومثلنا لذلك بنظام بلادنا السياسى فأوضحنا ان أشد المذاهب خلفاً من ملوكيين وجمهوريين وامبراطوريين واشتراكيين وهكذا يشتركون فيما يرمى جميعهم اليه وان هذا المرمى راجع الى طبيعة شعبنا النفسية او الادبية واستظهرنا على ذلك بوجود اسماء هذه النظامات

وانها عند أمم أخرى ودلالتها على شيء آخر وبأن وضع الاسماء للافكار والباس الشيء ثوباً يريه في صورة غيره لا يغير من حقيقة ذلك الشيء . كان أهل الثورة الفرنساوية متشبعين بادبيات الرومانيين شاخصين على الدوام الى جمهوريتهم فنقلوا اليهم شعارهم وقضبانهم (١) واردیتهم واجتهدوا في تقليدهم في نظاماتهم واحوالهم . ومع هذا لم يصيروا رومانيين لانهم كانوا محكومين بتقاليدهم التاريخية . ووظيفة الحكيم هي استخلاص مابقي من العقائد الاصلية وسط التقلبات الصورية وان يميز في معمعة الافكار المتغيرة ما يرجع منها الى روح الشعب وعقائده العامة

واذا لم يوجد هذا الفارق الفلسفي جاز الظن بأن الجماعات تغير كثيراً عقائدها الدينية والسياسية كما تشاء . والظاهر ان التاريخ يؤيد هذا الظن سواء كان تاريخ السياسة او الدين أو الفنون أو الادب . لانا اذا نظرنا في تاريخنا الى الفترة القصيرة الواقعة بين سنة ١٧٩٠ وسنة ١٨٢٠ اعني ثلاثين سنة وهو عمر جيل واحد رأينا الجماعات التي كانت ملوكية تحولت

---

(١) شارات القوة والعظمة عند الرومانيين

فصارت ثورية للغاية ثم امبراطورية كذلك ثم عادت ملوكية كما كانت هذا في السياسة واما فى الدين فانها كانت كاثوليكية ثم كفرت ثم قالت بالالوهية ثم رجعت الى الكثلكة الضيقة الى حد التغالى ولم يكن ذلك شأن الجماعات وحدها بل شاركها فيه كله قوادها فشهدنا والعجب يأخذ منا أولئك الثوار الذين تقاسموا على بغض الملوك وانكروا الله والسلطان امسوا خداماً خاضعين لنابوليون. واصبحوا يحملون الشموع والخشوع ملء جوانحهم فى احتفالات الملك لويز الثامن عشر

وما اكثر الانقلابات التى طرأت على افكار الجماعات فى السبعين سنة التالية. فقد صار الانكليز حلفاء أمة الفرنساويين فى عهد خليفة نابوليون. وكانوا فى أول القرن أعداء ماكرين واغرنا مرتين على بلاد الروس وكم خفقت قلوبهم فرحا بانكسارنا ثم صاروا لنا أصدقاء

واسرع من ذلك تقلب الافكار فى الادب والفنون والفلسفة فكنا لا نتقيد بقواعد اللغة. وكنا طبيعيين وكنا صوفيين. وكنا غير ذلك كل هذا ظهر واختفى. وكان الناس

يتغنون باسم هذا الكاتب او ذاك المصور فى المساء فاذا أصبح الصباح حقروه ورذلوه

واذا دققنا البحث فى هذه التقلبات التى يخال انها حقيقية متأصلة فى النفس رأينا ان ما كان منها مخالفاً للاعتقادات العامة ومشاعر الشعب فهو زائل لا يدوم الا يسيراً ولا تلبث المياه أن تعود الى مجاريها . فمن المعلوم انه يستحيل دوام الافكار التى لا رابطة بينها هى والمعتقدات العامة ومشاعر الشعب لانها معرضة لتأثير الطوارئ والاتفاق تتغير باقل تغيير فى البيئة التى وجدت فيها . ومما يدل أيضاً على عدم بقائها انها تولدت من طريق الالقاء والعدوى فهى تولد ثم تموت بسرعة الرمل الذى يتكون اكداساً على شاطئ البحر ثم تذهب به الريح ثم تعيده وهكذا

ولقد كثرت فى أيامنا هذه افكار الجماعات التى لا بقاء لها . ولذلك ثلاثة أسباب

الاول ان الاعتقادات القديمة أخذت تضعف شيئاً فشيئاً فلم تعد تؤثر فى الافكار العرضية تأثيراً ينظمها ويهديها وضعف تلك الاعتقادات العامة من شأنه ان يفسح المجال لتولد أفكار

خاصة لا رابطة بينها هى والماضى ولا يرجى بقاؤها فى المستقبل

السبب الثانى ان قوة الجموع تزداد شيئاً فشيئاً والقوة المضادة تضعف بمقدار ذلك وقد عرفنا ان الجماعات كثيرة التقلب فى افكارها فالنتيجة انها أصبحت أكثر حرية فى اظهار تلك الافكار المتقلبة

والسبب الثالث هو كثرة انتشار المطبوعات لما فيها من كثرة الافكار المتناقضة التى تعرضها على الجماعات فالفكرة لا تكاد تظهر حتى تبطل بظهور فكرة تخالفها وما من فكر ينتشر تماماً وكلها محكوم عليها بسرعة الزوال فهى تموت قبل ان تنتشر انتشاراً يثبتها ويجعلها معتقداً عاماً

من تلك الاسباب تولدت ظاهرة جديدة فى تاريخ البشر ينفرد بها العصر الحاضر وهى ضعف الحكومات عن قيادة الرأى العام

كان زمام الرأى فى الزمن السابق ما هو فى يد الحكومات وبعض ذوى النفوذ من الكتاب وعدد مخصوص من الجرائد فأما الكتاب فقد انعدم تأثيرهم . وأما الجرائد فان

وظيفتها أصبحت قاصرة على أن تكون مرآة للرأى وأما السياسيون فانهم لا يديرونه بل يسيرون خلفه . وقد أخذتهم منه رهبة تكاد أحياناً تبلغ حد الذعر والانذهال فهم لا يثبتون فى أى طريق يسلكون

نتج من هذا ان رأى الجماعات يقرب كل يوم من الاستيلاء على زمام السياسة . وقد وصل الآن الى الجاء الامم لعقد المحالفات كما وقع اخيراً فى المحالفة الروسية التى كانت حركة الرأى العام مصدرها الوحيد . ومن اعجب ما يشاهد الآن استسلام الباباوات والملوك والقياصرة لنظام الاحاديث [1] ليصرحوا بأفكارهم ويعرضوا آراهم فى أمر من الامور الى حكم الجمهور . قالوا فيما مضى ان السياسة ليست من الامور التى تسيرها المشاعر وانا نشك فى انه يمكن القول بذلك الآن بعد ما بان ان نزعات الجماعات تقودها كل يوم اكثر من الذى قبله والجماعات لا تعرف العقل ولا تندفع الا بالمشاعر

واما الجرائد فبعد ان كانت تقود الرأى العام كالحكومات

---

(١) يشير الى ما الفه الناس فى هذه الايام من محادثة الملوك والعظماء و نشر احاديثهم فى الكتب والصحف

اضطرت الى التسليم امام سلطان الجماعات نعم للجرائد أثر شديد فى الناس لكن ذلك سببه انها صارت مرآة لارائهم ومتغيرة بتغير افكارهم المستمر . أصبحت الجرائد رسل اخبار فلم تعد قادرة على نشر رأى او تقرير مذهب بل هى تسير خلف اهواء الجماعات مكرهة على ذلك بحكم المسابقة والتزاحم والا خسرت قراءها ألا ترى الجرائد الكبرى القديمة التى كان لها المقام الاول والتأثير القوى مثل (لوكونستيتوسيونيل) و (الديبا) و (السيكل) وهى التى كان يتلقى آباؤنا أقوالها كالوحى المنزل من السماء قد احتجبت أو صارت صحف أخبار محلاة ببعض الفكاهات القصصية ولطائف المجتمعات والاعلانات التجارية . لا توجد اليوم جريدة تسمح ماليتها للمحررين بابداء آرائهم الذاتية على انها ان وجدت ما كان لتلك الاراء والافكار قيمة عند القراء لانهم انما يطلبون خبراً يقرأونه او نكتة يتفكهون بها وصاروا فى ريب من كل رأى و نصيحة توجه اليهم اذ يظنون ان وراءها طمعاً فى ربح أو سعياً لمنفعة خاصة . بل ان اهل النقد أصبحوا لا يجرأون على نشر كتاب أو رواية تمثل فى المراسح فان النقد صار مما قد

يجلب الضرر ولا يجر اليهم نفعاً . أيقنت الجرائد بعدم الفائدة من النقد او ابداء الاراء الشخصية فجعلت تقلل منه فى عالم الادب حتى بطل واستعاضته بذكر اسم الكتاب الجديد متبوعاً بسطرين او ثلاثة للاعلان عنه والحث على اقتنائه وربما آل الامر الى مثل ذلك بعد عشرين سنة فيما يتعلق بنقد الروايات التى تشخص فى الملاهى

أصبح الشغل الشاغل للجرائد والحكومات تتبع حركات الرأى العام فالذى يهمهم من حادث يقع أو من مشروع قانون يحضر أو من خطاب يلقى انما هو أثر ذلك فى الناس وما ذلك بهين على طلابه لشدة تغير أفكار الجماعات فما أسرعها فى السخط على أمر لم تكد تفرغ من التهليل له

ينتج عن فقد ان ضابط للرأى واقتران ذلك بانحلال الاعتقادات العامة تفتت اليقين وتمزق الوجدانيات وعدم اهتمام الجماعات بشىء لا تظهر فيه لها منفعة حاضرة ظهوراً تاماً وأما المذاهب كالاشتراكية فان حماتها المخلصين من أجهل الطبقات كعمال المعادن والمصانع أما متوسطو الحال وكل من ناله قليل من التعليم فهم فى شك من كل شىء أو هم

كثيرو التقلب

التطور الذى تم من هذه الجهة فى الخمس والعشرين سنة الماضية واضح . فقبل ذلك والعهد قريب كان للافكار وجهة عامة لانها كانت مشتقة من بعض اعتقادات أصلية . وكان للملوكى بمقتضى كونه ملوكياً افكار واراء ثابتة فى التاريخ وفى العلوم . وكان للجمهورى بمقتضى كونه جمهوريا افكار واراء تناقض الاولى على خط مستقيم . الاول يعتقد ان الرجل ليس متولداً من القرد والثانى يعتقد الضد تماماً . الاول يرى من الواجب عليه اذا تكلم فى الثورة ان يغضب وينفر والثانى ان يعجب ويبالغ فى التعظيم والتبجيل . وكان من الناس من لا يجوز ذكر اسمه الا مقروناً بالخشوع والاجلال مثل (روبسبيير) و (مارات) أو متبوعا بالترذيل والامتهان مثل (قيصر) و (أوغسطس) و (نابوليون) . وعم هذا المذهب السخيف فى التاريخ حتى تفشى فى مدرسة (السربون) نفسها [1]

---

١) يوجد فى هذا الباب بعض صفحات من كتاب المعلمين الرسميين فى مدارسنا غاية فى الغرابة وهى تدل على ضعف ملكة النقد الناشىء عن طريقة التربية فى المدارس وانى انقل للقراء الاسطر الآتية

ليس لفكر ولا لرأى فى هـذه الايام وقع فى النفوس لكثرة المناظرة والتحليل مما يذهب بطلاوتها ولا يجعل تأثيرا للبقية والذى ينفرد به أهل هذا الزمان هو عدم الاهتمام بالامور شيئاً فشيئاً

على انه ينبغى ان لا نحزن من انتشار الافكار نعم لا شبهة فى انه منذر بانحطاط الامة لانه من المحقق ان تأثير اهل الخيالات والرسل وقواد الجماعات وعلى الاطلاق جميع الذين سكن اليقين قلوبهم اكبر جداً من تأثير اهل الجحود والنقادين ومن لا يهتمون بشىء لكن لا يذهب عنا انه اذا تمكن رأى واحد من النفوس والجماعات على ماهى عليه الآن من القوة والنفوذ لا يلبث اهله ان يصيروا مستبدين استبدادا

من كتاب الثورة الفرنساوية لاحد مدرسى التاريخ فى مدرسة (السربون) المذكورة قال « ان الاستيلاء على (الباستيل) عمل من اكبر اعمال تاريخ الامة الفرنساوية بل تاريخ اوروبا كلها لانه كان فاتحة دور جديد فى حياة الامم » وقال عن (روبسبيير) « ان استبداده بالناس كان استبداد رأى ويقين ونفوذ أدبى وكان اشبه بسلطة روحية عليا فى يد رجل من الاخيار » (صفحة ٩١ و ٢٢٠)

يذل له كل مافى الوجود ويغلق باب حرية الافكار وحرية النقد زمناً طويلا . لا يقال ان من سلاطين الجماعات من كان ندى الخلق لين الملمس لان طبعها قلب فهى هوائية سريعة الغضب والانفعال. فاذا قدر لحضارة ان تقع فى يدها اصبحت هدفا للطوارىء والمصادفات وقصر بذلك اجلها . وان كان يرجى تأجيل زمن الانحدار والسقوط فانما يكون ذلك من شدة تقلبات اراء الجماعات وعدم اهتمامها بالاعتقادات العامة